نجلة قاسم الصباغ

التحول الاجتماعي بالحجاز في العصر الأموي

* مقدمة

لابد لكل ظاهرة جديدة أو تغيير في المجتمع من اسباب وعوامل أدت الى وجودها، ويبدو ان مظاهر التحول التي طرأت على هذه البلاد تعود في جذورها الى عوامل سياسية تفرعت منها ظواهر اقتصادية واجتماعية .

وبالنسبة للسبب الاول نرى سياسة الاتجاه نحو الفتوح خارج الجزيرة كانت عاملا لتدفق أموالاً كثيرة الى هذه البلاد ومن ثم عاملا للتمازج والاختلاط بين العرب والعناصر الاجنبية من اهل البلاد المفتوحة واضافة لذلك ، السياسة الاموية التي اتبعها حكام بني امية باغداق الاموال الكثيرة على اهل البلاد لاسترضائهم وتهيئة الجو الاجتماعي الجديد . ولما كانت للاموال الكثيرة أهمية في ظاهرة التحول الاجتماعي فلا بد من القاء نظرة عابرة على الاحوال المالية والمعاشية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتوضيح الامور قبل العبور الى العصر الاموي الذي بدأت فيه معالم التغيير .

* الاحوال المالية في عصر الرسالة

تعتبر بلاد الحجاز صحراوية قفراء ، قليلة الموارد الزراعية ، وقد التجأ بعض أهلها – قبل الاسلام – لاحتراف التجارة .

لذا نرى ان الدولة الفتية التي انشأها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن لديها موارد مالية معينة وانما غلب عليها الجهد أحياناً فنرى الرسول صلى الله عليه وسلم يضطر في تجهيز بعض حملاته للاستدانة (١) فضلا عما قدمه بعض الاغنياء مثل عثمان بن عفان (٢) وأبو بكر الصديق (٣) وعبد الرحمن بن عوف (٤) وغيرهم .

---

(١) ابن الاثير – أسد الغابة، ج٣، ص١٥٥ طبعة طهران – استدان الرسول في حنين من عبدالله بن ابي ربيعة بضعة عشر الفاً ثم ردها اليه – البلا ذري انساب، ج١، ص٣٦٣ .

(٢) البلا ذري – انساب الاشراف، ج١، ص٣٦٨، الاصبهاني – حلية، ج١، ص٥٨ و ج٦، ص١٣٣ .

(٣) البلا ذري – الانساب، ج١، ص٢٦١، رسائل الجاحظ، ص٩، جمعها ونشرها حسن السندوبي

(٤) ابن الاثير – أسد الغابة، ج٣، ص٣١٥ .

فالامة كانت في ضيق اقتصادي شديد لعدم وجود موارد مستمرة وثابتة ولكن الاحوال أخذت بالتغيير التدريجي بعد الهجرة الى المدينة واعلان مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والانصار الذين اعانوهم مالياً وآثروهم في بعض الاحيان على انفسهم ، فعندما تهيأت أحوال بني النضير للرسول صلى الله عليه وسلم استشار الانصار حول كيفية توزيعها ، ولكن الانصار رفضوا نصيبهم وآثروا المهاجرين (١) ثم تلاها غنائم غزوة خيبر سنة ٦ هـ التي قسمها الرسول بين الناس بعد أن عزل نصفها لنوائبه ، فانتعشت أحوال المسلمين حتى قال عبد الله بن عمرو (رض) :

(ماشبعنا حتى فتحت خيبر) (٢) وتلاها غنائم الطائف — وبذا تمكنت الحكومة الناشئة أن تسير امورها واستطاع افرادها ان يحصلوا على ما يكفيهم من ضروريات حياتهم .

العصر الراشدي

وقد انتعشت احوال المسلمين نسبياً في العصر الراشدي ، نظراً لقيامهم بالفتوح خارج الحجاز وما رافق ذلك من غنائم ، حيث ان اول مال استلمه ابو بكر من البحرين وقسمه بين الناس جميعاً على السواء (٣) وتلى ذلك غنائم العراق (٤) . ورغم ذلك فالفتوح في خلافة ابي بكر كانت محدودة ، وكذلك الغنائم التي لم تكن لتغطي كافة احتياجات السكان المعاشية .

ويبدو ان الخليفة ابا بكر قد توقع استمرار الفتوح وتوسعها وكثرة الاموال ثم الاختلاط بالاجانب والاقتباس منهم لذا نراه يخشى عاقبة ذلك بقوله لعبد الرحمن بن عوف :
(رأيت الدنيا قد اقبلت ولما تقبل وهي جائية وستتخذون ستور الحرير ونضائر الديباج وتألمون ضجائع الصوف الازري كأن احدكم على حسك السعدان والله لئن يقدم احدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من ان يسبح في غمرة الدنيا) (٥)

---

(١) يحيى بن آدم — الخراج، ص ٢٠ .
(٢) الديار بكري — تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥٦ .
(٣) اليعقوبي — التاريخ، ج ٢، ص ١٢٤ .
(٤) الطبري — تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٣، ص ٣ — ٤ حوادث سنة ١٢ صالح بن الوليد اهل حصن بادقلي على (١٩٠) الف وصالح اهل الحيرة على تسعين الف ومائة الف درهم
(٥) الاصبهاني — حلية الاولياء، ج ١، ص ٣٤ .

وقد توسعت الفتوح في عهد الخليفة عمر ومعها تدفقت الاموال الى الحجاز وقد اوردت لنا الكتب التاريخية ارقاماً خيالية لهذه الاموال . ففي اول خلافته جاء ابو هريرة بخمسمائة الف. فخطب عمر في الناس وأعلمهم بها وقال لهم (ان شئتم نعده عداً وان شئتم نكيله كيلا) (١) .

وجرى العمل ان يرسل الخمس فقط الى المدينة وتقسم الاربعة اخماس بين المجاهدين ففي المدائن اصاب الفارس اثنا عشر الفاً (٢) . وفي جلولاء تسعة الاف وتسعة دواب وعن الشعبي ان الخمس كان ستة آلاف الف ارسل الى المدينة (٣) ، وقد اصاب الفارس في نهاوند ستة الف والراجل الفين (٤) .

وروى عن ابن عباس قوله (دعاني عمر فاذا حصير بين يديه عليه الذهب منثور نثر الحناء (٥) ، وحين فتح عمرو بن العاص مصر صالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار ، وفي رواية أخرى ان جبايتها كانت اربعة عشر الف الف دينار من خراج رؤوسهم(٦) وذكر ان خراج الكوفة بلغ في خلافة عمر (رض) في أحد الاعوام ثمانين الف الف درهم وفي العام الذي تلاه عشرين ومائة الف الف درهم وكان صاحب الكوفة يحمل الى المدينة نحو عشرين أو ثلاثين الف (٧) .

هذا فضلا عن الكنوز التي غنمها المسلمون في معارك الفتوح ، فقدروى الطبري(٨): (ان المسلمين اصابوا يوم المدائن بهار كسرى وكانوا يعدونه للشتاء اذا ذهبت الرياحين ، فكانوا اذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم في رياض ، بساط ستين في ستين ارضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء ذهب) وقد أرسله القائد سعد الى الخليفة عمر الذي قسمه بين الناس فاصاب علي (رض) منه قطعه باعها بعشرين الف دينار ، وقد رأى العرب في المدائن أيضا قباب تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص فظنوا

---

(١) البلاذري – فتوح ، ص ٤٣٩ .
(٢) الطبري – تأريخ الامم ،ج٤ ،ص١٧٧ لم يذكر نوع العملة .
(٣) المصدر نفسه ،ج٤ ،ص١٨٢
(٤) ابن الاثير – الكامل في التاريخ ،ج٣ ،ص١٦ .
(٥) ابو عبيد – الاموال ،ص٦١٩ .
(٦) الطبري – تاريخ الرسل والملوك ،ج٤ ،ص٢٥٠ .
اليعقوبي – التاريخ ،ج٢ ،ص١٤٤ .
(٧) نفس المصدر السابق ،ج٢٠ ،ص ١٤٣ .
(٨) الطبري – تاريخ الأمم والملوك ،ج٤ ،ص١٧٨ .

انها طعاماً فاذا هي آنية من الذهب والفضة وقسمت بين الناس (١) .

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين الف دينار ولبس سلبه وقيمته خمسمائة الف وخمسون الف (٢)، كما غنم أحد الجنود في القادسية أيضاً لما راية كسرى فعوض عنها بثلاثين الف دينار وقيل ان قيمتها الف الف ومائتي الف ، كما وجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية أيضاً ابريق ذهب مرصع بالجوهر فلم يعرف أحد قيمته فأعطاه للقائد سعد بن ابي وقاص الذي باعه بمائة الف دينار (٣) .

ويبدو مما تقدم ان اموالا كثيرة انصبت في هذه البلاد ، ومما لاشك فيه ان احوال المجاهدين كانت أفضل من أهل البلاد . وقد وصف كثرة الاموال ابن خلدون بقوله : (ان بحار الرفة زخرت عليهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون الف من الذهب) (٤) وكان لابد لهذه الاموال الواردة من تنظيم عملي في تقسيمها ، وبعد ان أستشار الخليفة عمر عدداً من ذوي الرأي ، أخذ برأي الوليد بن هشام بن المغيرة بتدوين الديوان وتجنيد الجند (٥) . وقد خالف عمر خطة سلفيه في تقسيم الاموال وعمر له اجتهاده في ذلك وقصده بالتفاضل بالاعمال كوسيلة للتقدم والعمل الجاد ، ولذا نرى انه فرض لأهل بدر خمسة آلاف ، ولمن بعد واقعة بدر الى الحديبية اربعة الاف ثم بعد الحديبية الى ان أقلع ابو بكر عن حروب الردة ثلاثة الاف ، ولأهل القادسية والشام الفين .... ومضى في هذا الترتيب الذي راعى فيه سابقة الجهاد والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه قال فيما بعد : (لقد هممت ان اجعل العطاء اربعة الاف الفاً يجعلها الرجل في أهله والفا يزودها معه والفا يتجهز بها والفا يترفق بها) (٦) مما يدل على انه قرر العودة الى مبدأ المساواة في العطاء .

وقد استمرت الفتوح نسبياً في عهد عثمان واستمر معها تدفق الاموال الى هذه البلاد فابن الاثير (٧) يذكر ان عمرو بن العاص صالح اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار جراية ، وصالح عبد الله بن ابي سرح اهل افريقية على الفي الف وخمسمائة الف دينار وفي رواية البلاذري (٨) انه بعث الى سرح صالح بتاريق افريقيا على ثلثمائة قنطار من الذهب ،

(١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧٥ .
(٢) الابشيهي — المستطرف، ج ٢، ص ٤٦ .
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦ .
(٤) المقدمة، ص ١٧٧ .
(٥) البلاذري — فتوح، ص ٤٣٦ .
(٦) الطبري — تاريخ الرسل، ج ٢، ص ٦١٥، دار المعارف ٩٦٢، البلاذري — فتوح ص ٤٣٨ .
(٧) الكامل — ج ٣، ص ٩١ ، اليعقوبي — التاريخ ج ٢، ص ١٤٣ .
(٨) فتوح البلدان، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

وصالح الوليد بن عقبة اهل اذربيجان على ثمانمائة الف درهم ، واخذ المسلمون من أهل قبرص جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار ، كما صالح ابن عامر اهل مرو على ستة الآف الف (١) وصالح الاحنف اهل بلخ على اربعمائة الف وقبل سبعمائة الف (٢)

مما تقدم نرى انه لابد ان يحدث نوع من التغيير في حياة السكان من الفقر والجهد وما فرضته على بعضهم ظروف الهجرة الى حياة مطمئنة يصرف فيها معاشهم بنظام موضوع فضلا عما يحصل عليه المقاتلون من الغنائم في ساحات الحرب ، قال خباب احد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما اعلم احداً لقي من البلاء مالقيت لقد مكثت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أجد درهماً وان في ناحية بيتي هذا اربعين الف درهم)(٣) وصورة التغيير واضحة ايضا في قول علي ابن ابي طالب (رض) : (لقد رأيتني واني لأربط الحجر على بطني من الجوع وان صدقتي لتبلغ اليوم اربع الاف دينار) (٤)

ويبدو لنا ان التغيير – في عهد الخليفتين ابي بكر وعمر – لم يكن واضحاً وكبيراً حيث ان الطابع الديني في التزهد بالحياة كان قوياً في النفوس لدى الطبقة الحاكمة وغالبية السكان .

فضلا عن سياسة الشدة التي اتبعها الخليفة عمر في محاسبة العمال والقواد حالت دون اتجاههم الى استغلال الاموال .

فنراه يحاسب خالد بن الوليد ويناصفه امواله (٥) وخالد مما لايخفى بلاؤه في الاسلام وثمانون الف درهم (وهو حاصل ماله) لم يكن شيئاً يذكر اذا علمنا ما قدمته فتوحاته في الجبهتين من غنائم وأموال تقدر بملايين الدنانير الى بيت مال الدولة .

والروايات عديدة في محاسبة عمر لعماله ، فهو يكتب لواليه على مصر عمرو بن العاص :

(انه ظهر من مالك مالم يكن من رزقك ولا كان لك مال قبل ان استعملك فانى لك هذا) .

---

(١) الطبري – تاريخ الرسل، ج٥، ص٤٥ ، ٥٣ ، ٧٧ حوادث سنة ٣٢ .
(٢) ابن الاثير – الكامل، ج٣، ص١١٦ .
(٣) الاصبهاني – حلية الاولياء، ج١، ص ١٤٤ .
(٤) ابن الاثير – اسد الغابة، ج٤، ص٢٣ .
(٥) الطبري – تاريخ الرسل، ج٤، ص٥٦ .

ثم يرسل اليه محمد بن سلمه فيشاطره امواله (١) وفعل مثل ذلك مع ابي هريرة والي البحرين وكتب الى ابي موسى الاشعري كتابا كله توبيخ فيه (قد بلغ امير المؤمنين انه فشرت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومشربك ليس للمسلمين مثلها، فاياك يا عبد الله ان تكون كالبهيمة همها في السمن وفي السمن حتفها ، واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت رعيته واشقى الناس من يشقى الناس به) (٢) . فعمر كان يحاسب العمال ليس في حالة استغلال الاموال فقط وانما على الملبس والمطعم والمشرب ايضا فهو عندما عين عمار بن ياسر على الثغر وعثمان بن عنيف على الخراج وعبد الله بن مسعود على بيت المال فرق لهم في كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار والشطر الاخر لعبد الله وعثمان (٣) .

ونراه يأخذ من بعض الافراد زيادة عما يستحقون من عقار، فهذا بلال ابن الحريث المزني اقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم ارضا كبيرة فاستدعاه عمر وترك له قسما من الارض كفاية له ثم اخذ الباقي وقسمه بين المسلمين (٤)

وقد استخدم سلطته السياسية في منع كبار المهاجرين من الخروج الى الامصار ، وعندما ضاقوا ذرعا بذلك شكوه فبلغه ذلك وقام بينهم قائلا موضحا قصده (... ألا ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فاما ابن الخطاب حي فلا اني قائم دون شعب الحرة اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار) (٥)

فضلا عن هذه السياسة فان روح الزهد كانت سائدة في نفوس عدد كبير من ذوي الثروات . ومما يروى في هذا الصدد (ان طلحة باع من عثمان ارضا بسبعمائة الف درهم فلما جائه المال قال ان رجلا يبيت عنده هذا لايدري ما يطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه بين المسلمين) (٦) وسأله رجل برحم بينهما فقال له : (هذا حائطي أعطيت فيه مائة الف درهم فان شئت فالمال وان شئت فالحائط) وقال عنه زياد بن جرير : (رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة الف درهم في مجلس واحد وانه ليخبط ازاره بيده) (٧)

---

(١) ابن ابي الحديد – شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٧٤ – ١٧٥ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩ .
(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد، ص ١٩ ، ٢٤ .
(٣) المسعودي – مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٣، والثغر كل مكان قريب من ارض العدو ، ياقوت معجم الادباء، ج ٢، ص ٧ .
(٤) الاصبهاني – حلية، ج ١، ص ٤٩ .
(٥) الطبري – تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ١٣٤، حوادث سنة ٣٥ هـ .
(٦) الابشيهي – المستطرف، ج ١، ص ١٥٧ .
(٧) الابشيهي – المستطرف، ج ١، ص ١٥٨ .

وكان عطاء سلمان الفارسي خمسة آلاف ولكنه كان يحتطب في عباءة واذا خرج عطاؤه أمضاه ويأكل من سفيف يده (١)

والروايات عديدة حول ما كان يتصدق به عبد الرحمن بن عوف منها انه باع أرضاً له من عثمان بأربعين الف دينار وقسم المال في بني زهرة وفقراء المسلمين وامهات المؤمنين (٢) وتصدق في يوم واحد بمائة وخمسين الف دينار (٣) كما تصدق بسبعمائة بعير محملة بالبسر والدقيق والطعام (٤) وخير مثال لأحوال المسلمين عندما فتح عمرو بن العاص مصر وأرسل اليه المقوقس وفداً للمفاوضة ولكن عمراً حبس الرسل عنده يومين ليروا أحوال المسلمين وسمح لهم بالتجول في معسكرهم ، فعاد الرسل الى المقوقس ووصفوا له أحوال المسلمين بقولهم :

(رأينا قوماً الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما تعرف رفيعهم من وضعيهم ولا السيد من العبد واذا حضرت الصلاة لا يتخلف منهم واحد) (٥)

وهذا الوصف خير دليل على نوعية الحياة الاجتماعية للمسلمين في عهد الخليفة عمر.

التغيير في عهد الخليفة عثمان :

وبدأ التغيير يظهر تدريجياً في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي يختلف عن سلفه في امور شتى ، حيث اعطى الناس الاين والسماحة بعد الشدة والسعة ، وقد ذكرنا سابقاً ان الخليفة عمر كان يمنع كبار المهاجرين من الانتقال الى البلاد المفتوحة لكي لاتفتنهم حضارتها (٦)

---

(١) ابن سعد – الطبقات، ج٤، ص٦٢ .
(٢) الاصفهاني – حلية الاولياء، ج١، ص٩٨ – ٩٩ .
(٣) العقاد – عثمان بن عفان، ص ١٢٩ – ١٣٠ .
(٤) ابن الاثير – أسد الغابة ج٣، ص٣١٥ .
(٥) عبد الحميد بخيث – عصر الخلفاء الراشدين، ص ١٣٥ .
(٦) الطبري – تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص١٣٤، حوادث سنة ٣٥هـ .

ولكن عثمان خالف هذه السياسة وسمح لهم بالخروج الى الامصار ، وقد يكون لتسامحه ولينه أثر في ذلك وان لم يكن يتوقع في خروجهم أية نتائج سيئة، ولكنهم عندما (رأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام ...) ثم يضيف الطبري قوله : (ولم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش اموالا في الامصار) (١)

فضلا عن ذلك فان الخليفة الجديد زاد الناس في اعطياتهم مائة مائة حتى قيل عنه انه (اشبع الناس في بيوتهم) (٢)

وترد الروايات عن عطايا عثمان الكثيرة لعدد من الافراد فيذكر انه كان يستلف من بيت المال مئات الآلاف ليعطي من يطلب منه ذلك (٣) ، فقد اعطى طلحة في خلافته مائتي الف دينار (٤) واعطى مروان خمس افريقية وغيره من اقربائه (٥) .

وقد ازداد الناس في عهده في تثمير الاموال واقتناء العقارات وبذا ظهرت طبقة من ذوي الثروات الكبيرة ، منهم على سبيل المثال الزبير الذي يذكر عنه الاوزاعي انه كان لديه الف مملوك يؤدون له الضريبة ولا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها ، وباع له دار بستمائة الف درهم وتصدق بها في سبيل الله (٦) وقال عنه المسعودي (٧) انه ابتنى داراً بالبصرة ودوراً أخرى بمصر والكوفة والاسكندرية ، ويبدو لنا من مبلغ الصدقات التي ينفقها انه كان يملك اموالاً عظيمة فيذكر ان له اربع نسوة اصاب كل واحدة منهن من تركته الف الف ومائتي الف . (٨) ومنهم ايضا طلحة الذي بنى داره المشهورة بالكوفة بدار الطلحتين ويذكر ان غلته من العراق الف دينار يوميا وقيل اكثر

---

(١) نفس المصدر السابق، ج٥، ص١٣٤ .
(٢) نفس المصدر، ج٥، ص٤٥ .
(٣) البلاذري - انساب الاشراف، ج٥، ص٥٨ .
(٤) نفس المصدر السابق، ج٥، ص ٢ ، ٩ ، ٣٨ .
(٥) نفس المصدر السابق، ج٥، ص٢٥ ، مروان بن الحكم .
(٦) ابن الأثير - اسد الغابة، ج٢، ص١٩٨ .
(٧) مروج الذهب - ج٢، ص٣٣٣ .
(٨) الاصفهاني - حلية الاولياء، ح١، ص٩١ .

وقد شيد له قصراً بالمدينة بالآجر والجص والساج (١) ووجد في تركته ثلاثمائة بهار من الذهب والفضة (٢) .

كان عبدالرحمن بن عوف من الاثرياء المعروفين حيث ان أصل ماله من التجارة والروايات عديدة عن أمواله وكثرتها فقد ذكر المسعودي (٣) انه ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وقد خلف مالا عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس إلى غير ذلك من الاموال (٤) وكذلك عبدالله بن عامر الذي اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لاهلها لايؤدون عليها خراجا (٥) كما اتخذ بمكة حياضا ونخلا وأنام النباح وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة وقريتين اخريين انبط فيها العيون وغرس النخيل فيهما (٦) .

ومنهم خالد بن سعيد الذي كان يقول اذا برقت السماء : (امطري حيث شئت فما تمطرين الا على بلد لي فيه مال) (٧) وقد ذكر سعيد بن المسيب ان زيد بن ثابت ترك من الذهب والفضة ماكان يكسر بالفؤوس غير ماخلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار (٨) ويعتبر عمرو بن العاص من الاغنياء حيث خلف ثلثمائة الف دينار وخمسة وعشرون الف دينار ومن الورق الفي الف درهم وضيعته المعروفة بالرهط قيمتها عشرة الاف درهم (٩) ، وقيل عن الخليفة عثمان (رض) انه كان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة الف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه مائة الف دينار وخلف خيلا وابلا كثيرة (١٠) .

---

(١) المسعودي — مروج الذهب، ج٢، ص٣٣٣ .
ابن الاثير — اسد الغابة، ج٢، ص٦١ .
(٢) ابن عبد ربه — العقد الفريد، ج٢، ص٢٧٩، البهار مزود من جلد الجمل .
(٣) مروج الذهب ج٢، ص٣٣٣ .
(٤) ابن الاثير — اسد الغابة، ج٣، ص٣١٧ .
(٥) السكري — المحبر، ص١٥٠ .
(٦) ابن قتيبة — المعارف، ص ١٦٤، ط جوتنجن ، الازرقي — اخبار مكة ج١ص٤٤١
(٧) البلاذري — انساب الاشراف، ج٥، ص١٠٨ .
(٨) المسعودي — مروج الذهب، ج٢، ص٣٣٤ .
(٩) المسعودي — مروج الذهب، ج٢، ص٣٣٤ .
(١٠) نفس المصدر ج٢، ص٣٣٣ .

وقد ارتفعت الاسعار في هذه الفترة فيروى عن محمد بن سيرين ان النخلة بلغت على عهد عثمان بالف درهم (١) .

وقد خصص المسعودي فصلا لذكر الثروات الكبيرة في عهد عثمان ثم انه عاد وقارن الوضع بما كان عليه الخليفة عمر حين حج مرة فانفق في ذهابه وايابه ستة عشر ديناراً وقال لابنه عبدالله : (لقد اسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا) (٢) ولكن يبدو لنا ان اغلب هذه الثروات لم تكن مصادرها غنائم الفتوح او عطايا عثمان التي اقتصرت على عدد محدود من الافراد فقط ، فغنائم الفتوح لم تكن بالكثرة بحيث تكون هذه الثروات ثم ان التفاوت بين أكبر عطاء وأصغره لم يكن كبيراً والظاهر أن أغلب مصادر هذه الاموال كانت من التجارة والزراعة فعدد كبير من اهل البلاد كانوا يحترفون التجارة وقد ثمروا اموال الفتوح والعطاء في التجارة والزراعة فاصبحت لديهم هذه الاموال .

ولا ننسى ان البعض منهم كانت لديه الاموال منذ العصر الجاهلي واستمر في صدر الاسلام ولم يكن وجودها مستجداً في عصر عثمان ، ويبدو لنا ان نظرة الفرد العربي تغيرت عما كانت عليه سابقاً فتغير مجرى صرف الاموال تبعاً لذلك كما رأينا في اقتناء القصور والضياع والعبيد .

* **التطور الاجتماعي في العصر الاموي**

* **السياسة الاموية**

ذكرنا سابقاً ان ظاهرة الثراء لدى بعض الجماعات تركت بعض الاثر الواضح منذ عهد الخليفة عثمان ولكنها لم تؤد إلى نتائج عملية واضحة المعالم وعلى نطاق واسع ، ذلك لأن المجتمع كان في فترة انتقالية بين البداوة والحضارة وبين القديم والجديد ونظرا للظروف التي غلفت ذلك المجتمع فنرى ان تلك الفترة لم تكن مهيئة للاقتباس الجديد .

---

(١) ابن سعد – الطبقات الكبرى، ج٤، ص٤٩ط ليدن، حدد علي بن ابي طالب . المستوي الوسط بقوله (مادون اربعة نفعة وما فوقه كنز) ابن قتيبة عيون ج١ص٢٤٥ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب، ج٢، ص٣٣٤ .

ولكن التغيير السياسي المتمثل في انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق وما رافقه من حوادث الفتن والحروب الاهلية التي ايقظت بذورها الخصومة بين بني هاشم وبني امية وتباورت بشكل آخر بنعل العصبية بين ولاة الامور واهل الحجاز ، كل ذلك دفع حكام الأمويين إلى اتخاذ خطة قوية في سبيل الاحتفاظ بحكمهم وابعاد ابناء الذين أسسوا الدولة الاسلامية عنه ، وهم الذين عرفوا بالاتجاه الاسلامي في الحكم والذي يصطدم مع سياسة الملكية الوراثية المستبدة التي سار عليها حكام الامويين . فعمدوا إلى ابعادهم عن السياسة واشغالهم بامور اخرى بصورة مباشرة او غير مباشرة وحجزهم داخل الحجاز خوفاً من الفتن وقد شبه الدكتور طه حسين خلفاء بني امية بقياصرة الرومان الذين كانوا يضيقون على شباب الارستقراطية الرومانية في ايطاليا (١) وكانت وسيلتهم في تنفيذ هذه السياسة اغداق الاموال على اهل البلاد وخاصة الاشراف منهم ، واستمرار العطاء على المشمولين به ولكن بدون تقديم اي عمل او انتاج .

وبدأ بهذه السياسة الخليفة الاموي الأول معاوية الذي عرف بصفات اللين والحلم وضبط النفس في اكمل صوره ، فنراه يسيطر على الامصار الاسلامية وبينها الحجاز وهو لم يفتحها بحد السيف بقدر ماوصل اليها عن طريق شرائها بالاموال .

فهو حين صالح الحسين بن علي بن ابي طالب جعل له ما في بيت مال الكوفة وخراج دارا بجرد (٢) .

وكان يجيز كل من الحسن والحسين ابناء علي ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر سنويا الف الف درهم فضلا عما يعطيه للوافدين عليه منهم من انية الذهب والفضة وغيرها من الهدايا (٣) ،وكان يستخدم الاموال للوصول إلى اغراضه فيروى انه سمع كلاما فيه غلظة من عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق فلم يكن ليعاقبه وانما استدعاه وقال له :

(مرحباً بك يا ابن الشيخ الصالح قد علمت ان الذي خرج منك كان لحفائنا بك ولنأى دارنا عن دارك فارجع حوائجك ، فقال ، علي من الدين كذا واحتاج إلى كذا واقطعني كذا

---

(١) حديث الاربعاء ج١ ص٢٦٤

(٢) الطبري — تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص٤

(٣) الابهيشي — المستطرف في كل فن مستظرف ج١ ص٥٨ قدم اليه ابن عباس فاهدى اليه من هدايا النوروز وحللا كثيرة وآنية من الذهب والفضة وكان يغدق على الحسن الاموال الكثيرة الثعالبي — لطائف المعارف ص ٢٢

فقال معاوية — قد قضيت جميع حوائجك) (١) ولم تكن لتغضبه خشونة بعض اشرافهم معه وانما يقابلها بالحلم دائما فيروي الابهيشي ان لعبدالله بن الزبير ارض تجاور ارض معاوية وكان فيها عبيد يعملون فدخلوا ارض ابن الزبير وغضب وكتب إلى الخليفة معاوية يتهدده ويتوعده فلما قرأ معاوية الكتاب كان معه ابنه يزيد الذي طلب منه ان يرسل جيشاً اليه يأتيه برأسه ولكن جواب معاوية كان : (أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله (ص) وساء في ماساءه والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه نزلت عن أرضي لك فأضفها بما فيها من العبيد والأموال والسلام)ويوضح لنا الكتاب مدى ضبط النفس والحلم لدى الخليفة كما انه في جوهره كان دبلوماسياً سياسياً وخاصة انه يعرف مركز ابن الزبير في الحجاز . وقد اهتم معاوية بمدينة مكة ولعله أراد ارضاء أهلها أيضاً فقد أجرى في الحرم عيوناً واتخذ لها اخياماً فكانت حوايط فيها النخل والزرع منها حائط الحمام وحائط عوف وغيرهما (٣) وذكر ان معاوية اول من كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد ، كما اجرى لها وظيفة الطبيب بكل موسم وكان يبعث لها المجمر والخلوق في الموسم ورجب (٤) والاخبار كثيرة عن عطايا معاوية لاهل الحجاز في سبيل ارضائهم بصورة مباشرة وغير مباشرة(٥). وتابع الخليفة يزيد سياسة ابيه — اول الامر — رغم تغير الطباع فعندما اتاه عبدالله ابن جعفر وقال له — ان اباك كان يصلني بألف الف سنويا — قال له — فلك اربعة الاف الف (٦) ولما جاءه وفد اهل المدينة وفيهم عبدالله بن حنظلة واولاده الثمانية

---

(١) الازرقي — اخبار مكة ج١ص١٩٠ .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف ج١ص١٩٠

(٣) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٤٤٣
والاخياف — كل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل ابن منظور — لسان العرب ج٩ص١٠٢

(٤) الفاسي — شفاء الغرام ج١ص١٢٠ ، ١٢٦ — والمجمر — البخور او العود ، لسان العرب ج٤ص١٤٤

(٥) الاصفهاني — الاغاني ج١٥ص١١٠
الاصبهاني — حلية الاولياء ج١ص٢٩٦ و ج٢ص٤٩

(٦) الثعالبي — لطائف المعارف ص٢٢

اعطاه مائه الف ولكل من اولاده عشرة الاف (١) وبعث مرة إلى عبدالرحمن بن حسان عندما رأى منه جفوة بثلاثين الف درهم(٢) كما ان رسوله إلى أهل المدينة (قبل وقعة الحرة) قال لهم : (ان لكم في عهد الله وميثاقه عطائين في الشتاء وعطاء في الصف وان أجعل سعر الحنطة عندكم سعر الخبط والخبط يومئذ سبع أصع بدرهم) (٣) .

وقيل عن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان انه عندما تولى المدينة لم يترك فيها فقيراً الا اغناه ولا مديوناً الا ادى عنه دينه (٤) وكان والي فارس — عمر بن عبيدالله بن معمر يبعث الاموال الكثيرة إلى أهل المدينة وكذلك الثياب المعمرية (٥) .

واستمر خلفاء بني أمية على هذا النهج السياسي ، فالوليد بن عبدالملك عندما حج مرة قسم بالمدينة رقيقاً كثيراً وآنية من الذهب والفضة وأموالا بين الناس(٦) ويعتبر الخليفة الوليد أول من ذهب البيت في الاسلام حيث أرسل واليه القسرى ثلاثين الف دينار وأمره بأن يجعلها صفائح ذهبية على باب الكعبة والاساطين والميزاب (٧) وذكر اليعقوبي ،(٨) أنه حين حج سنة ٩١ هـ ليطلع على البيت والمسجد النبوي بعد تعميره قسم أموالا كثيرة بين أهل المدينة أيضاً (٩) ، وحين حج الخليفة سليمان سنة ٩٧ هـ قسم في أهل المدينة أموالا ثم فرض لقريش خاصة اربعة آلاف فرضه لم يدخل فيها حليفاً ولا مولى فاجتمع مشيخة قريش وجعلوها لحلفائهم ومواليهم فلما علم فرض لهم اربعة آلاف فريضة اخرى (١٠) وكان عمر بن عبد العزيز قد تولى المدينة في خلافة الوليد وليس بغافل عن احوالها فنراه — بعد خلافته — يعطي بني هاشم الخمس ويرد قرية فدك إلى ولد فاطمة (١١) وأكرم ولد علي بن

---

(١) البلاذري — انساب الأشراف ج٤ص٤٣

(٢) نفس المصدر ج٤ ص١١

(٣) البيهقي — المحاسن والمساوي ج١ ص٤٧

(٤) الابهيشي — المستطرف ج١ص١١٧

(٥) الاصفهاني — الاغاني ج١٥ص ٢٨٨

(٦) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج٢ص١٢٣٣ط ابريل سنة ١٨٨٣

(٧) اليعقوبي — التاريخ ج٣ص٣٠

(٨) نفس المصدر السابق ج٣ ص٣٠

(٩) نفسه ج٣ص٤١ط الغرى بالنجف

(١٠) نفس المصدر ٣ ص٥٠ وكانت فدك قد اقطعها معاوية لمروان فوهبها الاخير لابنه عبد العزيز ثم ورثها عمر .

(١١) المسعودي — مروج الذهب ج٣ص١٨٤

أبي طالب (١) وعندما بلغه ما يعانيه أهل المدينة في عهده من الجهد جهز اليهم أحمالا فيها الطعام والاموال والملابس لتوزع عليهم (٢) وروى أنه أرسل إلى المدينة في ولاية أبي بكر بن حزم اموالا قسمت بين أهلها .

ولم ينقطع العطاء عن أهل المدينة الا سنة واحدة في خلافة هشام بن عبدالملك حين خرج عليه زيد بن علي ، وقد اعاده الوليد بن يزيد حين تولى الخلافة (٣) .

من خلال ما تقدم نرى ان حكام الامويين استخدموا الاموال والعطايا كوسيلة لاسترضاء اهل الحجاز وابعادهم عن الاشتراك السياسي ،وقد صور هذه العطايا الشاعر الاحوص عندما قبض من احدهم عشرة آلاف دينار بقوله : (٤)

وما كان مالي طارفاً من تجارة وما كان ميراثاً من المال مقلداً
ولكن عطايا من امام مبارك ملا الارض معروفاً وجوداً وسؤددا

ب— الاختلاط بالامم المغلوبة

لم تكن الاموال وحدها قادرة على تهيئة الجو الاجتماعي الجديد ، ولكن تبعها عن طريق الفتح عدد عظيم من أهل البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الاسلام ، ثم ان طائفة كبيرة من السبايا والرقيق قدموا المدينة ووزعوا على أهلها .

ان اختلاط الشعب العربي بغيره من الشعوب كالفرس والروم كان امراً حتمياً ونتيجة لحركة الفتوح التي هيأت له التطلع إلى ما عند تلك الامم من حضارات واساليب الحياة المختلفة التي لم يألفها العرب فضلا عما حصل عليه الفاتحون من الرقيق الفارسي والرومي فقد روى الطبري (٥) ان اول سبي وصل الى المدينة في خلافة ابي بكر ارسله المثنى من عين التمر . وذكر الواقدي (ان سبي قيسارية بلغوا اربعة الاف بعثهم معاوية إلى الخليفة عمر

---

(١) الاصفهاني — حلية الاولياء — ج٥ ص٣٢٨.
(٢) التوحيدي — الامتناع والمؤانسة ج٢ ص٧٢ .
(٣) الاصفهاني — اغاني ج٧ ص٢٢ ط دار الكتب
(٤) نفس المصدر ج٩ ص٨ اخبار كثير — الطبعة المصورة .
(٥) تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص٢٧ .

الذي قسمهم على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين (١).

وبدأ هؤلاء الموالي يشتركون في تغيير المجتمع الحجازي فمنهم من عمل بانواع الحرف كالحدادة والنجارة والبناء وغير ذلك مما كانوا يتقنوه في بلدانهم وقد أعطى الشرع الاسلامي للفرد حتى امتلاك ما شاء من الاماء ، لذا نرى ان هذه الكثرة التي انحدرت من بلاد مختلفة ومن طبقات اجتماعية متباينة كان لها اثراً كبيراً في شؤون الحياة العامة والخاصة .

وقد وصف ابن خلدون هذا التغيير بقوله : (٢) (لما ملك العرب فارس والروم واستخدموا بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ... واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والتومة عليه افسدوهم علاج ذلك والقيام عليه والتفنن منه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في احواله فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الاموال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والموانيء والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والحرف فاتوا من ذلك وراء الغاية) .

وينطبق كلام ابن خلدون على ما حدث في الحجاز في هذه الفترة وخاصة ان كثيراً من النساء اصبحت أمهات اولاد . فقد روي عن أهل المدينة انهم كانوا يكرهون اتخاذ امهات الاولاد فلما قدم سبي فارس على عمر وكان فيه بنت يزدجرد فقومن واحدهن علي فاعطى واحدة لأبن عمر فولدت له سالماً وأعطى الاخرى لولده الحسين فولدت له علياً واعطى اختها لمحمد بن أبي بكر فولدت له القاسم ففاق هؤلاء أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعا فرغب الناس حينئذ بالسرارى (٣).

وقد كثرت أعدادهم حتى خشي بعض الصحابة عاقبة ذلك فقد روي عن أبي الدرداء أنه قال عندما فتحت قبرص وسبي منها السبي (اذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة)(٤)

وقد قام هؤلاء الاقوام بنقل صنوف الحضارة إلى المجتمع الحجازي، ويبدو أن العرب أقبلوا على هذا الاقتباس بحذر واعتدال في العصر الراشدي وخاصة في عهد الخليفة عمر — حيث نرى أثره محدوداً وطفيفاً ذلك ان المسلمين لازالوا يعيشون مباديء الاسلام والسنة فضلا للموقف الحازم للخليفة عمر في نبذ هذه الاساليب كما يتضح من قوله (دعوا التنعم

---

(١) البلاذري — فتوح البلدان ص ١٤٧ ، ٢٦٣ .
(٢) المقدمة ص ١٤٤ ط بولاق .
(٣) ابن حجر — تهذيب التهذيب ج٣ص٤٣٧ .
(٤) ابن الاثير — الكامل في التاريخ ج٣ص٩٧ .

وزي العجم) (١) اضافة لانشغال المسلمين بامور الفتح والجهاد ، ولكن التأثير بدأ ينتعش في خلافة عثمان (٢) ولكن الاحوال السياسية لم تكن لتفتح له المجال الواسع الذي كان له في العصر الاموي .

* مظاهر التطور الاجتماعي :

* البناء : —

من خلال البحث في مجال البناء والعمران نرى التغير طرأ اولا في مواد البناء ، فالبيوت عامة كانت مادة البناء فيها الطين واللبن وسقفها من الجريد (٣) وهو ما كان متوفراً في البلاد قبل الفتح ، ويبدو ان التغيير بدأ منذ عهد الخليفة عمر الذي كان يقول : (على كل خائن امينان الماء والطين ومر ببناء يبني بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لفلان عامل له فقال : تأبى الدراهم الا أن تخرج اعناقها وشاطره ماله) (٤) وهذا يناقض قول سيد امير علي في أن البيوت في مكة كانت تشيد اما من الحجارة او الاجر وفي المدينة كانت معظم البيوت من الآجر (٥) .

ويبدو من ضآلة المعلومات حول العمران انه كان بشكل فردي وعلى مستوى ضيق :

وبدأ التطور العمراني يظهر بوضوح في عهد الخليفة عثمان حيث اخذت الطبقة الغنية تشيد القصور والدور بالآجر والجص وتتفنن في زخرفتها وترقيطها بالحجارة الملونة واتخاذ الخشب الساج في أبوابها الخ .

روى المسعودي ان سعد بن أبي وقاص بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج١ص٧ ، ٣٤ ، ٦٩ .

(٢) المسعودي — مروج الذهب ج٢ص٣٣٣.

(٣) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٨ص١٢٠ط ليدن حول بناء بيوت الرسول (ص) .
ابن الاثير — الكامل ج٣ص٥٧ حوادث سنة ٢٣هـ .

(٤) ابن قتيبة — عيون الاخبار — مجلد ج٣ص ٣١٢

(٥) مختصر تاريخ العرب ص ٧٢

وجعل اعلاها شرفات ، وبنى المقداد ايضاً داراً بالجرف وجعل اعلاها شرفات كما جعلها مجصصة الداخل والخارج .

وقد بنى معاوية بن أبي سفيان دوراً في مكة يقال لها الرقط (١) استخدم في بنائها عمالا من الفرس (٢)

ويبدو ان هناك نهضة عمرانية شملت البلاد حيث امتد البناء في المدينة الى اسفل الوادي وأعلاه ونرى ذلك واضحاً في قول ابن عباس لابن صفوان (هيهات هيهات — تركت والله سنة عمر . . قضى عمر ان اسفل الوادي واعلاه مناخ للحجاج وان اجياد وقعيقعات للمريحين — والذاهبين واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً (٣).

وقد بالغوا بالعناية في بناء القصور حتى انها كادت تفوق في هيئتها قصور دمشق عاصمة الخلافة فيروى ان الخليفة معاوية بن أبي سفيان حين حج أحد الاعوام وقف أمام دار عبدالله بن الحارث يتعجب من حسن بنائها فخرج عليه عبدالله قائلا (لا أشبع الله بطناك أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار (٤) وقد ذكر السمهودي (٥) عدداً كبيراً من بينها قصر عروة الذي قال عنه صاحبه (والله لابنيه بناءاً لا يبلغونه الا بشق الانفس) فبناه وهيل بثاره وقال فيه :

بنيناه فاحسنا بناه فحمد الله في خير العقيق

تراهم ينظرون اليه شذرا ياوح لهم على وضح الطريق

وهذا دليل واضح على وجود تنافس شديد بين الناس وخاصة الاغنياء منهم في مجال البناء والعمران .

ومن بين هذه القصور : قصر ابي هشام المغيرة بالعقيق والذي كلفه مالا كثيراً ويعرف بقصر بنت المرارزقي ثم قصر أبي بكر بن عبدالله بن مصعب الزبيري الذي عرف بالمستقى والذي قال فيه الشاعر :

ياقصر لو كان خالداً احدا بالجود والمجد كان مولاكا

---

(١) مروج الذهب ج٢ص٣٣٣ والجرف — موضع على ثلاث اميال من المدينة نحو الشام — ياقوت معجم ج٢ص١٢٨

(٢) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٤٤٩ — ٤٥٢

(٣) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٣٩٢، واجياد موضع في مكة يلي الصفا وقعيقعات جبل بمكة وقيل انها قرية قرب مكة — ياقوت — معجم البلدان ج١ص١٠٥ و ج٤ص٣٧٩

(٤) الاصفهاني — الاغاني ج١ص٢١٩

(٥) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ج٢ص ١٩٢—١٩٨

وقد بنى سعيد بن العاص بن سعيد قصراً في العرصة وغرس فيه النخل والثمار وقد سميت عرصة الماء وفيها قال الشاعر ابو قطيفة شعره المشهور :

والقصر دو النخل فـالحمـــاء بينهمـــا اشهى الى النفس مـن ايـوان جبرون(١)

كما روى عن سكينة بنت الحسين انها باعت اموالها بازوراء واستبدلت بها قصراً في العقيق يسمى البريدي ، وروى انها خرجت اليه عندما سال العقيق وجلست على الجرف مع جواريها وقالت : (والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء) (٢)

ويبدو أن التطور العمراني شمل أكثر أحياء المدينة حيث أن أبا علي الهجري (٣) يستعرض لنا هذه القصور بقوله: (إن سيل الوادي يفضي إلى الشجرة التي بها محرم رسول الله (ص) ثم يلي ذلك مزارع أبو هريرة (رض) ثم تتابع القصور يمنة ويسرة بها منازل الاشراف فيها يبتدؤون منها منازل عن يمين الجائي من مكة (ومنها) قصر لاسحاق بن أبي أيوب المخزومي وقصر لابراهيم بن هشام وقصر لآل طلحة بن عمر بن عبيد الله ومنازل أسفل منها عن يمين الطريق لآل سفيان بن عاصم ...ووجاهة ذلك في قبالة جماء تضارع منازل لعبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان ثم يليها قصر طاهر بن يحي ومنازل ولده (ووجاهها) في صير حرة الوبرة مزارع عروة بن الزبير وبئره وأسفل منها بئر المغيرة بن العاص وأسفل منها ضفائر قصر مراجل والزيني قصر سكينة بنت الحسين وقصور لغير واحد ثم قصور ابنة المرازقي في الزهرية ثم منازل جعفر بن ابراهيم الجعفري ثم يفضي إلى بئر ردمة وقصور كثيرة يمنة ويسرة .. الخ)

ونلاحظ أن البناء كان في تزايد مستمر ولم يقتصر على طبقة معينة وإنما كان هناك حركة عمرانية تساير طبقات المجتمع .

وشملت النهضة العمرانية – الاماكن المقدسة – أيضاً .

وذكر أن الخليفة عثمان زاد في مسجد الرسول (ص) ووسعه وبناه بالحجارة المنقوشة وجعل عمده من حجارة فيها رصاص وسقفها من الساج (٣) وفي خلافة الوليد بن عبدالملك

---

(١) وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ج٢ص٢٠١ ياقوت الحموي معجم البلدان ج٤ص١٠١ العرصة في العقيق قرب المدينة

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج١٤ص١٧٢ اخبار الحسين بن علي .

(٣) السمهودي – وفاء الوفاء ج٢ص٢٠١ – وجماء تضارع – هضاب في المدينة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج٢ص١٥٩

(٤) الطبري – تاريخ الامم ج٥ص٥٦

تولى عمر بن عبدالعزيز واليه على المدينة عمارة المسجد النبوي حيث بناه بالحجارة المنقوشة والفسيفساء والمرمر وسقفه بالساج وماءالذهب ووسعه بادخال حجرات زوجات النبي (ص) فيه ، وقد دام العمل فيه ثلاث سنوات (١) .

وأصاب التغيير المسجد الحرام أيضاً ،وكان الخليفة عبدالملك أول من رفع جدرانه وسقفه بالساج وجعل في راس كل اسطوانة خمسين مثقال من الذهب ، وأكمله ابنه الوليد حيث ازر المسجد من داخله بالرخام وجعل له شرفات (٢) وروى أنه (الوليد) أرسل إلى واليه على مكة ثلاثين ألف دينار — ضربت صفائح ذهب على الباب والاساطين والاركان والميزاب (٣)

وقد تكون أعمال حكام بني أمية هذه ارضاء لابناء الحجاز والمسلمين عامة ، فضلا عما يظهره لنا التأثير الحضاري في هذا المضمار .

الالبسة :

غلبت البساطة وقلة التنوع على الالبسة في عصر الرسالة وعهد أبي بكر وعمر ، وقد طرأ التغيير على الالبسة تبعاً للتغيير الذي طرأ على المجتمع عامة وكان للاقتباس الاجنبي أثره الواضح مع ماهيئته الاموال اللازمة لذلك . وروى أن الخليفة عمر حين ذهب إلى الجابية — بعد فتح الشام — (خرج اليه القواد لاستقباله على الخيول وعليهم الديباج والحرير ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال لهم سرعان مالفتم عن رايكم (٤) ، ويبدو أن الذي رآه الخليفة كان مستحدثاً وغريباً لذا رفضه وأخذ يشدد في سياسته بمنع المسلمين من الخروج إلى الامصار الأخرى . وأخذت الاحوال بالتغير التدريجي حين ولي الخلافة عثمان الذي

---

(١) ابن رستة — الاعلاق النفسية ص٦٩
ياقوت الحموى — معجم البلدان ج٧ص٤٣١
البلاذري — فتوح ص ٢٠ — ٢١

(٢) الفاسي — شفاء الغرام في اخبار البلد الحرام ج١ص٢٢٥

(٣) اليعقوبي — التاريخ ج٣ص٢٩

(٤) الطبري — تاريخ الرسل والملوك ج٤ص١٥٨ حوادث سنة ١٥ هـ وقعة اجنادين .

عرف بسماحته ولينه .فعرف المجتمع أنواعاً جديدة من الالبسة منها الملونة والموردة والقز والحرير والديباج والكتان الخ .

ويبدو أن الخليفة عثمان كان ممن يهتم بلباسه ،روى البلاذري (١) أنه رؤى مرة وعليه ثوبان معصفران ووراءه غديرتان ومرة عليه خميصة سوداء ،وأخرى عليه بردا ثمنه مائة دينار ،كما لبس القمصان القوهية وغيرها (٢)

ويلاحظ أن الرجال أخذوا يلبسون مطارف الخز ،فقيل عن الحكم بن العاص أنه دخل المدينة وعليه فرز خلف ثم دخل على عثمان وأخذ يلبس الخز والطيلسان (٣) ورؤى القاسم بن محمد على رحله قطيفة خز وعليه جبة خز خضراء ورداء ممصر(٤) وكان محمد بن الحنفية (يكثر من ارتداء مطارف الخز الملونة فعن أبي إدريس قال : قال لي محمد بن الحنفية (مامنعك أن تلبس الخز فانه لابأس به اقلت أنه يجعل فيه الحرير) (٥) ويبدو أن بعض الزهاد كان يتحرج من لبس الخز لما روى عن الرسول (ص) بتحريم لبس الحرير للرجال .

وقد لبس الرجال ثياب الكتان ، وأول من لبسه زياد بن أبي سفيان (٦) ، وروى أن الشعبي كان يلبس الازار الكتان المورد (٧) ،ويبدو أن أغلب الكتان كان من طبقة الأغنياء فميمون يقول (لايلبس الكتان إلا غني أوغري (غلو) (٨) ،كما ساد لبس الطيالسة بين الناس ، ذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس الطيلسان المزرر بالديباج وكذلك سعيد بن المسيب(٩) وكان كريب بن أبي مسلم مولى عبدالله ابن عباس وأصحابه يلبسون طيالسة طوالاً أزرارها بالديباج (١٠) ومن مظاهر الترف أيضاً مايروون عن مروان بن عثمان بن عفان أنه كان يلبس— أحياناً —

---

(١) انساب الاشراف ج٥ص٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ج٥ص٣ و ٨ .
(٣) اليعقوبي — التاريخ ج٢ص١٥٤ط النجف ١٩٦٤ .
(٤) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ص١٤٢ ، ٥٠ط ليدن .
(٥) نفس المصدر السابق . والصفحة والمطارف اردية من خز مربعة لها أعلام .
(٦) البيهقي — المحاسن والمساوىء ج٢ ص٥٠
(٧) الاصبهاني — حلية الاولياء ج٤ص٣٢٤
(٨) نفس المصدر ج٤ص٨٦
(٩) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ص٩٩ ، ١٣٤ ليدن .
(١٠) نفس المصدر السابق ج٥ ص٢١٦

سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن ألفي درهم(١)ومارورى عن البسة الشاعر عمر بن أبي ربيعة الكثير منها ماجاء في كتاب الأغاني : (أنه حج عاماً من الأعوام على نجيب له مخضوب بالحناء مشهور الرجل بتراب ومعه جماعة من حشمه وغلمانه وعليه حلية موشية بجانبه وعلى ابن سريج ثوبان هرويان مرتفعان فلم يمروا بأحد إلا أعجب من حسن هيئتهم)(٢) .

ويبدو أن أغلب الشباب من ذوي الثروات كانوا يجارونه في هذا المضمار . وقد كان عروة بن الزبير يصلي في قميص وملحفة مشتملاً بها على القميص (٣) . وعرف سعيد بن المسيب بحبه للتنوع في الألبسة حيث كان يقول : (اصلح قلبك وألبس ماشئت) (٤) وقال عنه اسحق بن يحيى — (رأيت سعيد بن المسيب وعليه ابريسمان ممشقان وقميص شقائق تخرج يداه من كمه) (٥) وقد لبس الرجال الثياب القسي المستورد من الشام ومصر (٦)كما لبسو ثياب العصب(٧) وذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس في الحرقباء سندسي مبطن بحرير (٨) وأخذ بعض الأغنياء — يتغالون في شراء الالبسة الغالية الثمن . فيروى أن كسوة بكر بن عبدالله المازني قومت باربعة آلاف (٩) — وكان الشاعر المعروف بالعرجي—أحد أحفاد عثمان بن عفان—يلبس الحلة بخمسمائة دينار (١٠) كما ان أبن عباس كان يشتري الرداء بألف (١١)ومثله محمد بن عمرو الذي كان يشتري المطرف

---

(١) الأصفهاني — الاغاني ج١٧ص٨٩ط الساسي .
(٢) نفس المصدر ج١ص ١٠١
(٣) ابن سعد — الطبقات ج٥ص١٣٤ط ليدن الملحفة مايلبس فوق سائر الا لبسة
(٤) الاصبهاني — حلية ج٢ص١٧٣
(٥) ابن سعد — الطبقات ج ٥ ص ١٠٣ وكان احد التابعين (ابا جعفر محمد) يقول : لابأس بالاصبعين مع العلم بالابريسم بالثوب ج ٥ ص ٢٣٦ .
(٦) البخاري — الصحيح ج ٧ ص ٤٥ وهي ثياب مضلعة فيها الحرير امثال الاترنج .
(٧) الاصفهاني — اغاني ج ٩ ص ١١ — في شعر كثير — والعصب برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه ابيض لم يأخذ الصبغ .
(٨) ابن سعد — الطبقات ج ٥ ص ٣٤ ط ليدن .
(٩) الاصبهاني — حلية الاولياء ج ٢ص٢٢٧ لايذكر نوعية النقود درهم او دينار .
(١٠) الاصفهاني — اغاني ج١ ص ٣٩٥ .
(١١) ابن قتيبة — عيون الاخبار ص ٢٩٨ ط دار الكتب .

بسبعمائة ويلبسه (١) كما روى عن عمر بن عبدالعزيز عندما كان والياً على المدينة كان يلبس الثوب بأربعمائة درهم ويقول ماأخشنه وأغلظه (٢) وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد (فقيل له في ذلك فقال إني أجالس ربي) (٣) كماعرف عبدالله بن جعفر بجودة لباسه . فكان يلبس الجبة الخز المنسوجة بالذهب وثمنها ثلثمائة دينار (٤)

وقد حدد عبدالله بن عمر — في هذه الفترة — المستوى الوسط للالبسة وثمنها عندما سأله رجل عما يلبس من الثياب — فقال : (مالا يزدريك فيه السفهاء ولا يعتبك به الحلماء .. مابين الخمسة إلى العشرين درهم (٥) ولعل ابن عمر يتكلم بلغة الرجل المتدين البعيد عن حياة الترف التي عمت المجتمع في عصره .

وفي هذا العصر تابع الناس المودة السائدة أو الشهرة كما تعارفوا في تسميتها حينئذ ، قال معمر : (رأيت قميص أيوب السختياني يمس الأرض)فسألته عن ذلك فقال : (أن الشهرة كانت فيما مضى بتذييل القميص وأنها اليوم في تشميره) (٦)

ويتضح لنا من رواية بن أبي عبدالرحمن : (رأيت مشيخة في المدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورد والمعصفر وفي أيديهم المخاصر وبها أثر الحناودين أحدهم أبعد عن الثريا إذا أريد دينه) (٧) وماذكره طاوس بن كيسان من أنه (رأى فتية من قريش يرفلون في مشيتهم فقال انكم لتلبسون لبوساً ماكانت آباؤكم تلبسها وتمشون مشية ما تحسن الرقاص يمشونها) (٨) بأن الترف — في مجال الالبسة — قد عم الجميع شباباً وشيوخاً لذا نرى تبعاً لذلك ظهور موجة الاعتراض من علماء الدين .

---

(١) ابن سعد — الطبقات ج ٥ ص ٥٠ .

(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٧ ص ٨٩ ، وابن سعد — الطبقات ج٥ ص ٢٤٦

(٣) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص ٢٦

(٤) الاصفهاني — الاغاني ج١٢ ص ٢١٩ ترجمة عبدالله بن معاوية ط دار الكتب المصورة .

(٥) الاصبهاني — حلية الاولياء ج١ ص ٣٠٢

(٦) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٧ ذكر أيوب السختياني .
ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٥ الطبعة الاولى الازهرية .

(٧) ابن قتيبة — عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٩

(٨) الاصبهاني — حلية الاولياء ج٤ ص ١٠ج ١ ص ٣٧٩ ابن سعد — الطبقات ج٤ ص ٣٩٥

وقد كانت ألبسة الصوف مرفوضة ومكروهة من المجتمع ذكر الاصبهاني (١) عن أبي العالية قوله : (زارني عبدالكريم أبو أمية وعليه ثياب صوف فقلت هذا زي الرهبان ان المسلمين إذا تزاوروا تجملوا)، والخليفة الاموي معاوية عندما دخل عليه النخار العذري مرتدياً العباءة احتقره فرد عليه النخار بقوله — (ياأمير المؤمنين ليس العباءة تكلمك انما يكلمك من فيها) (٢) حيث كان لبس العباءة مكروهاً أيضاً حينئذ .

أما لباس الرأس فالعرب منذ القديم كانت تستخدم العمائم ، واستمر لبسها في هذا العصر مع شيء من التطور ، حيث لبس الناس العمائم المصنوعة من الخز(٣) وجعلها بعضهم سوداء ويحليها ببرنسي ارجواني (٤) ، وكان محمد بن الحنفية يتميم بعمامة حرقانية ويرخيها شدا أو أقل (٥) .

ولبس البعض مع العمامة ، القلنسوة ويستدل من الخلف شبراً منها (٦) وقد تنوعت ألوانها فمنها البيضاء والخضراء، ومنها ما صنع من الخز ،وروى عن نافع بن جبير أنه كان يلبس قلنسوة أسباطاً (مسبطة) وعمامة بيضاء (٧) ولعل الكثير من الرجال كانوا يرتدونها.

ويستلفت الانتباه في هذا العصر اهتمام الرجال ببعض مظاهر الزينة كالخضاب مثلاً حيث نرى أغلبية الرجال كانوا يصبغون رؤوسهم ولحاهم بالحناء والكتم ، وذكر ابن سعد (٨) عدداً كبيراً منهم مثل علي بن الحسين الذي كان يخضب بالحناء والكتم وكذلك القاسم بن محمد ومحمد بن الحنفية ، وكان أبو سلمة عبدالرحمن بن عوف يخضب بالوسمة والسواد ،ومنهم من يصفي لحيته بالدهن . وقد اهتموا بتصفيف شعرهم فيروى عن سعيد بن المسيب ان كان له لحية ليست بالكثيرة قد فرقها (٩) وأخذ الشباب في هذا العصر يصفف شعره وفق موضات خاصة حتى ذكر أن عمر بن عبدالعزيز (كان إذا صلى

---

(١) حلية الاولياء ج٢ ص ٢١٧ (ابو العالية — أحد التابعين)
(٢) ابن قتيبة — عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٧ — المبرد — الكامل ج١ص ٢٧٥
(٣) ابن سعد — الطبقات ج٥ ص ١٤١ ط ليدن
(٤) ابن سعد — الطبقات ج٥ ص ١٠٢ ط ليدن كان سعيد بن المسيب يلبس في الفطر والاضحى ذلك .
(٥) نفس المصدر ج٥ ص ٨٤
(٦) نفسه ج٥ ص ١٤٦
(٧) نفسه ج٥ ص ٤٢ — ١٥٢،٤٦ عن نافع بن جبير .
(٨) الطبقات الكبرى ج٥ ص ٨٤ ، ١٤٣، ١٦٠ ،١٦١ ، ١١٦ .
(٩) نفس المصدر ج٥ ص ١٠٣ .

الجمعة بعث الخراس وأمرهم أن يقوموا على باب المسجد ولا يمر عليهم رجل مصفف شعره لاينمرقه إلا جزوه) (١) .

ومن مظاهر الزينة الاخرى استخدام المسك والطيب باسراف ، فقد ذكر أبن قتيبة (٢): (عن أبو الضحى قوله : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك مالو كان لي كان رأس مال). وكان ابن عباس يطلي جسده بالمسك ، وروى عنه أيضاً أنه حين أحرم كانت الغالية على صلعته كأنها الرب ، وكان بن مسعود إذا خرج إلى المسجد عرف جيرانه ذاك الطيب ريحه.

وكذلك عمر بن عبدالعزيز الذي كان يكثر من الطيب ،وقد روى عن طائفة من شباب ذلك العصر أنهم كانوا يعطون الدراهم الكثيرة للغسال حتى يغسل ثيابهم في أثر ثياب عمر بن عبدالعزيز من كثرة الطيب فيها (٣) .وقد أهدى عبدالله بن جعفر إلى الخليفة معاوية قارورة كبيرة من الطيب وحين سأله كم أنفق عليها ذكر مالاً كثيراً (فقال له هذه غالية فسميت بذلك) (٤) .

وكان علماء الدين في هذا العصر يرغبون فيه ولا يرون مايعارض الشرع فحين دخل رجل على محمد بن المنكدر يسأله عن التطيب والتزين وجده قاعداً على حشايا مصبغة وجاريته تغلفه بالغالية فقال له — (يرحمك الله جئت أسألك عن شيء فوجدته فيك — فأجابه — على هذا أدركت الناس (٥) وكذلك كان مالك بن أنس إذا جلس للحديث يوضع العود فلا يزال يتبخر حتى يفرغ (٦) .

وقد لبس الرجال الخواتم في أيديهم ونقشوا عليها ما يرغبون (٧) فكان فص القاسم ابن محمد من فضة مكتوب عليه اسمه واسم أبيه (٨) واقتنى بعضهم الخواتم الغالية الثمن(٩) . وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن الألبسة ومظاهر الزينة لدى الرجال إلا أنها كافية

---

(١) نفس المصدر ج٥ص ٢٨٢
(٢) عيون الاخبار مجلد ١ ج٣ص ٣٠٣
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٦ ص ٢٦٢ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .
(٤) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص٢٨ .
(٥) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ٣ص ٢٨٦ الطبعة الاولى سنة ١٣٢١ هـ .
(٦) امين الخولي — مالك بن أنس ص ٢٥٠ .
(٧) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج١ ص ٣٠٢ .
(٨) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ ص ١٤١ ط ليدن
(٩) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص ٢٨ اشترى ابن عمر بن عبدالعزيز فص خاتم بألف دينار فكتب اليه ابن عمر (عزمت عليك الا مابعت خاتمك وجعلتها في بطن جائع) .

لاعطائنا صورة واضحة عن العصر ، وذلك لأن من عادة المؤرخين دائماً الاهتمام بالخاصة من أبناء المجتمع دون العامة . ومع ذلك فيمكننا القول بأن هناك اهتماماً من الناس عامة بالأناقة والذوق الرفيع والاقتباس الأجنبي وترك ماكان عليه السلف من البساطة في الهيئة.

* الألبسة النسائية :

أخذت المرأة حظاً من فنون الزينة المختلفة سواء في ملابسها أو في حليها وعلى الرغم من أن المؤرخين لا يوردون لنا الأمثلة العديدة عن ذلك لأن المرأة لم تكن تبدي زينتها ، ولكن تصوير الاختلاط ونتاجه الذي ظهر في الشعر قد أجلى لنا بعض جوانب الموضوع.

إن الزي الذي كانت ترتديه النساء بصورة عامة هو — الصدار والمجول — وهما قميصان قصيران لا أكمام لهما ودونهما السراويل — وفوق الصدار الدرع — وهو جلباب شامل يحيط بدثارها ويلبس النطاق دون الدرع — تشده على وسطها — ثم تلبس الحلة — وهي ثوب يظاهره ثوب آخر يغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً (١) .

وظهرت في العصر الأموي الثياب المروية والقوهية المستوردة يقول ابن سعد (٢) (إن المنذر بن الزبير قدم من العراق فارسل إلى أسماء بنت أبي بكر بكسوة من ثياب مروية وقوهية رقاق عتاق) ، والألبسة المصنوعة من الخز قال العرجي في صاحبته .

أحاطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلا

وأكثرت النساء من لبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والقوهية المعصفرة حتى تكاد تشف عن أجسامهن (٣) ولبس بعضهن الديباج والقصب فهذا الشاعر عمر بن أبي ربيعة يصف أتراب الثريا صاحبته بقوله :

---

(١) عبدالله عفيفي — المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ج١ ص ١٢٦

(٢) الطبقات الكبرى ج٨ ص ١٨٤ ط ليدن .

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٧ ص ١٤٣ ، ابن عبد ربه — العقد ج٣ ص ٢٨٠ و٢٦٣

يسرفلن في مطرفات السوس آونة وفي العقيق من الديباج والقصب (١) .

ولبس بعضهن نوعاً من الثياب تدعى – الأتب – وهو مشقوق الوسط تلقيه المرأة على عنقها من غير كمين ولاجيب ولعله كان من ألبسة الرجال أيضاً لأن الشاعر يقول

وتلبس للجارات أتبا ومئزرا ومرطا فبئس الشيخ يرفل في الأتب (٢)

ولبسن الخمر الرقيقة لتغطية رؤسهن روي أن تاجراً قدم المدينة يحمل من خمر العراق فباع الجميع الا السود فشكى ذلك إلى الدارمي فعمل له بيتين من الشعر وامر بأن يغني بهما في المدينة منه

قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلت براهب متعبد .....

فشاع الخبر في المدينة فلم تبق مليحة إلا اشترت خماراً أسود (٣) . ....

وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن ألبسة المرأة يبدو أن أغلب الالبسة كان يتسم التطور والذوق الغريب والاسراف ويظهر ذلك واضحاً من كلام أم المؤمنين عائشة (رض) التي عايشت التحول بقولها عن ألبستها : (أما والله ماكان خزاً ولاقزاً ولاديباجاً ولاقطناً ولا كتاناً ... كان سداه من الشعر ولحمته من وبر الابل) (٤) .

ومن لواحق الزينة لنساء هذا العصر التطيب ، ويذكر لنا ابن سعد (٥) بان نساء من الانصار – في عصر عمر – كن يشترين العطر من اسماء بنت مخرية التي كان ابوها عبدالله أبي ربيعة يبحث اليها بعطر من اليمن . اما في العصر الاموي فقد ظهر في هذا المجال ايضاً روى أن رقية بنت عبد الواحد انها كانت تطوف وتقبل الحجر الاسود وفاحت منها رائحة المسك حتى عجب كل من في المسجد وكأنها فتحت بين اهل المسجد لطيمة عطار (٦) ويصف جميل عطر صاحبته بثينة بقوله :

كأن فتيت المسك خالط نشرها تغل به ارداتها والمرافق (٧)

---

(١) جبور – حياة بن أبي ربيعة ج٢ ص ٣٦ ، الاصفهاني – الاغاني ج١ ص ٤٠١
(٢) الاصفهاني – اغاني ج١ ص ٤١٥
(٣) الابشيهي – المستطرف في كل فن مستظرف ج٢ ص ٢٦
(٤) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج٣ ص ٣٩٤
(٥) الطبقات الكبرى ج٨ ص ٢٢٠ ط ليدن .
(٦) الاصفهاني – الاغاني ج٥ ص ٩٦ أخبار ابن قيس الرقيات ط المصورة
(٧) نفسه ج٨ص ١٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

وعلى نحو ذلك بالغ أغلبهن بالتزين بالحلي والمجوهرات فيصفهم سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بقوله : (١)

حليـن مـرجـان البحـور وجـوهرا كـالحمـر فيـه على النحـور ينظـم ..

وروى عن سكينة بنت الحسين انها كانت تلبس الدر الكثير (٢) وجاء في اخبار عائشة بنت طلحة ان زوجها مصعب بن الزبير دخل عليها وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات ثمنها عشرون الف دينار فانبهها ونثر في حجرها فقالت — نومتي كانت احب الي من هذا اللؤلؤ . (٣)

وكان للرائقة جارية خالد بن عبدالله القسري ياقوتة حمراء يخرج طرفاها اشترتها بثلاث وسبعين الف دينار (٤)

ويظهر من شعر عمر بن أبي ربيعة ان كثيراً من النساء كن يتحلين بالجواهر حيث يصف اتراب الثريا صاحبته بقوله : (٥)

تـرى عليـهـن حـلـي الـدر مـتـسـقـا مـع الـزبـرجد والياقـوت كالشهب

ولبس بعضهن الدمالج في معاصمهن والخلاخيل في أرجلهن (٦) ورووا عن الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبه الشاعر ابن أبي ربيعة انها كانت تتختم في أصابعها العشرة (٧) ولعل كثيراً من النساء كن يفعلن مثلها .

واخذت فئة من النسوة يصففن شعرهن وفق موضات خاصة مثلما شاع عن الجمة السكينية — نسبة الى سكينة بنت الحسين — التي كانت تصفف شعرها بشكل جميل حتى انتشر بين الرجال والنساء وفتن البعض بهذه الموضة فانكرها عمر بن عبدالعزيز وقاومها بين الرجال (٨) .

---

(١) نفسه ج٨ ص ٢٧٣ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .
(٢) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج٤ ص ٢٥
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج١١ ص ١٨٢ ، ج١ ص ٣٩٣ أخبار ابن محرر .
(٤) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص ٢٨
(٥) جبور — حياة عمر بن أبي ربيعة ج٢ ص ٣٦
(٦) الاصفهاني — الاغاني ج ١٥ ص ٨ الطبعة المصورة عن دار الكتب يقول خالد بن يزيد عن رحلة
تحـول خلاخيـل النسـاء ولا ارى لرملـة خلخـالا يحـول ولا قلبـا
(٧) الاصفهاني — اغاني ج١ ص ٩١
(٨) نفسه ج١٦ ص ١٤٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

* الاطعمة

كانت اطعمة العرب في صدر الاسلام بسيطة وقليلة التنوع نظراً لقلة الموارد المالية ولعدم معرفتهم بصنوف الأطعمة ولكن التطور الذي طرأ على المجتمع نتيجة للفتوح والاختلاط جعل العرب يتطلعون الى أطعمة الأمم الأخرى ويقلدونها ـ جاء في المستطرف(١) (كانت العرب لاتعرف الالوان انما طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية فاتخذ الألوان) ويؤكد ذلك مارواه الطبري (٢) : (بان خالد بن الوليد عندما غزا قرى أليس على الفرات وقف على الطعام ونفله المسلمين ... وجعل من لم يعرف الأرياف والرقاق يقول ـ ماهذا الرقاع البيض فيرد عليهم الآخرون بأنه رقيق العيش) . ـ كما رأى المسلمون في كسكر نوعاً من الأطعمة يدعى النرسيان فأكلوا منه وبعثوا بخمسه الى الخليفة عمر وكتبوا اليه : (ان الله اطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها وأحببنا ان ترونها لتذكروا انعام الله وافضاله)(٣) ورأوا في اذربيجان أيضاً الخبيص (٤) .

وأخذت احوال المسلمين بالتحسن التدريجي منذ خلافة عثمان حيث كان نفسه يعجبه ماطاب من الطعام ، ويروى عن عمر بن أمية الضمري قوله :

(كنت أتعشى مع عثمان خزيرا من طبخ من اجود مارأيت فيها من بطون الغنم وادمها اللبن والسمن فقال لي عثمان : كيف ترى هذا الطعام؟ قلت : هذا اطيب ماأكلت قط . فقال : رحم الله ابن الخطاب ، أكلت معه هذه الخزيرة ؟ قلت ، نعم . فكادت اللقمة تغرث بين يدي وليس فيها لحم وكان ادمها السمن ولا لبن فيها . قال عثمان : صدقت ان عمر (رض) اتعب من تبع اثره) (٥) . ولكن عمر كان يقول وهو يقدم الخبز اليابس

---

(١) نفسه الابهيشي ـ ج١ ص ١٧٧

(٢) نفسه تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص ١٠ حوادث سنة ١٢ ـ ١٣ هـ

(٣) نفس المصدر السابق ج٤ ص ٦٥

(٤) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ج٣ ص ١٠١ والخبيص نوع من الحلواء المخلوطة ابن منظور ـ لسان العرب ج٧ ص ٢٠

(٥) العقاد ـ عثمان بن عفان ص ٦٦

بغير ادام لضيوفه : (لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائف وسبائك وصناب ولكني رايت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم) (١) .

فالخليفة عمر كان يميل الى الزهد في الحياة من شتى جوانبها وكان يطلب من رعيته أن تتبعه في هذا المضمار .

لذا نرى ان الخبيص كثر في خلافة علي (رض) فنراه يصور ذلك الاقتباس عندما تقدم منه الى ضيوفه بقوله : (ان الاسلام ليس ببكر ضال ولكن قريشاً رأت هذا فتناجزت عليه) (٢) ، والخليفة علي عرف بزهده في الحياة أيضاً متبعاً نهج ابن الخطاب ولكنه لم يكن يمنع الناس من هذا الاقتباس فنراه يصف الفالوذج عندما قدم اليه بقوله : (انك طيب الريح حسن الاون طيب الطعم لكن أكره أن أعود نفسي مالم تعتده) (٣) .

واتخذ الناس في العصر الاموي أنواعاً جديدة من الطعام منها السكباج الذي نعتوه بأنه سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد (٤) وهو نوع من المرق باللحم والخل ، وعرفوا الاوزينج وهو نوع من الحلوى يحشى باللوز والسكر (٥) . كما عرفوا النقانق المحسنة بالخردل وهي معي الغنم المحشو والمقلي ، وكذلك السنبوسج وهو رقاق معجون بالسمن أو الشيرج ويحشى بقطع اللحم والجوز (٦) . كما اختص البعض في صنع طعام الولائم (٧) ، وأصبح البعض لايستغني عن أكل الفواكه بعد الطعام حتى روي عن بعضهم : (انهم اذا طلبوا

---

(١) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ١ ص ٧ – والصلائف ماعمل بالنار طبخاً والسبائك مايسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه – حيث يريد به الخوارزي – والصناب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب واللحم – الكامل – المبرد ج ١ ص ٧٤ .

(٢) الاصبهاني – حلية الاولياء ج ١ ص ٨١ – ٨٢

(٣) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٨١ ، ١٠٠
الابهيشي – المستطرف ج ١ ص ٢١٠ وصف الحسن البصري الفالوذج بأنه لباب البربلعاب النحل بخالص السمن .

(٤) الابهيشي – المستطرف ج ١ ص ١٧٧ ، الاصبهاني – حلية ج ٣ ص ١٠٠

(٥) زيدان – التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٧٨

(٦) الاصفهاني – الاغاني ج ١ ص ٨٨

(٧) نفسه ج ٤ ص ٤٠٨

فاكهة ولم يجدوها في بلدهم استحضروها من الشام (١) . وقد اكل الاغنياء منهم في آنية الذهب والفضة (٢) .

* اللهو والترف :

اتجه المجتمع الحجازي في هذا العصر نحو البحث عن وسائل اللهو والتسلية بمختلف أنواعه ، ونجد ان أهم مظاهر اللهو بروزاً هو الغناء .

والعرب كانت تعرف الغناء قبل الاسلام وبعده على الرغم من وجود حديث عن أنس بن مالك ان الرسول (ص) قال : (بعثني الله عزوجل هدى ورحمة للعالمين وبعثني لأمحو المزامير والمعازف ..) (٣) ولكننا نرى الرسول (ص) يجيز الغناء في المناسبات (٤) وقد عرف العرب منذ القدم الحداء الذي تسرع الابل عند سماعه وغناء النصب الذي يلهون به في اسفارهم (٥) .

ولكننا اذا نظرنا للجو الغنائي الذي عاشته الحجاز في هذا العصر نراه من نوع جديد ومصادره أجنبية (٦) نهض به الرقيق الغريب الذي ورد بوفرة الى هذه البلاد من أمثال ابن سريج وابن مسجح وطويس وسائب خاثر ونشيط ومعبد والدلال وجميلة وعزة الميلاء وغيرهم من الموالي ، وأقبل الناس عليه اقبال الضمآن للماء حتى شهر الحجاز به وطبيعي لمثل هذا الشباب الذي حيل بينه وبين العمل والذي يمتلك بعضه الثروات ويأتيه الآخر عطاؤه بانتظام ان لم يوجه لأعمال مجدية ودراسات فكرية توجه الى اللهو والترف ، وهو ماكان يبغيه الحكام الامويون .

---

(١) ابن عبدربه — العقد الفريد ج٣ ص ٢٤٢
(٢) ابن سعد — الطبقات ج٤ ص ١٣٦
ابن عبدربه — العقد ج١ ص ١١١
(٣) ابن الاثير — أسد الغابة ج١ص ١٤٦
(٤) البخاري — الصحيح ج٦ ص ١٤٠ ، الاصبهاني — حلية الاولياء ج٣ ص ١٢٠ وج ٦ ص ٣٤٠ ، ابن الاثير أسد الغابة ج٤ ص ٦٤ ، ص ٢٠٢
(٥) ابن الاثير — أسد الغابة ج١ ص ١٢١ ، ١٧٣ وج ٢ص ١٦٢
(٦) الا صفهاني — الا غاني ج١ ص ٢٥٩ وج ٣ ص ٨٤ ، ٨٦

اما اول ابتداء الغناء في المدينة فقد روي أن عبدالله بن عامر اشترى اماءاً صناجات وأتى بهن الى المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه فسمع الناس منهن وأخذوا عنهن ، ثم قدم رجل فارسي يدعى نشيط فغنى وأعجب عبدالله بن جعفر فقال له سائب خاثر أنا أصنع مثل غنائه بالعربية) (١) .

ويبدو ان الغناء في المدينة بدأ في عهد معاوية على الرغم من ان المسعودي (٢) يورد ظهوره في عهد ابنه يزيد ، فابن الكلبي (٣) يروي بأن معاوية قدم المدينة مرة وأمر صاحبه بالاذن للناس فخرج الاذن ثم رجع فقال (مابالباب احد فقال معاوية — وأين الناس— قال عند ابن جعفر) يسمعون الغناء .

وكان للمدينة قصب السبق في هذا المضمار حيث نرى أبا يوسف القاضي يقول للزهري (ما أعجب امركم ياأهل المدينة في هذه الأغاني ، امنكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها)(٤)، ويبدو ان الاشراف احتضنوه قبل العامية فاقتدى العامة بهم فابن صفوان يعاتب عبدالله بن جعفر بقوله (ياأبا جعفر لقد صرت حجة لفتياننا علينا اذا نهيناكم عن الملاهي قالوا هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها) (٥) والروايات عديدة عن ولع ابن جعفر بالغناء وحضوره مجالس المغنين قال أبو عباد (اتيت جميلة وكان لي موعد ... فاذا مجلسها غاص ... فبينما نحن كذلك اذ اقبل ابن جعفر وكانت جميلة شديدة الفرح فقامت والناس فتلقته وقبلت رجليه ويديه وجلس في صدر المجلس ... واندفعت تغني بعودها فما سمعت منها قبل ولا بعد .. فسبح ابن جعفر والقوم معه) (٦) .

وكان الحسن بن الحسن بن علي مولعاً بالغناء أيضاً وعنه رواية ظريفة يرويها صاحب الأغاني مصوراً فيها مجال اللهو خير تصوير حيث يقول (سال العقيق مرة... وخرج الناس وخرج ابن عائشة المغني فجلس على قرن البئر فبينما هم كذلك اذ طلع الحسن بن الحسن ومعه غلامان اسودان وقال لهما امضيا حتى تقفا على قرن البئر الذي عليه ابن عائشة ...

---

(١) نفس المصدر السابق ج٨ ص ٣٢١ ذكر سائب خاثر — الطبعة المصورة
(٢) مروج الذهب المسعودي ،ج٢ ص ٧٤ وج ٣ ص ١٥
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٨ص٣٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب
(٤) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج٣ ص ٢٣٣
(٥) نفس المصدر ج٢ ص ١٥٢
(٦) الاصفهاني — الاغاني ج٨ ص ١٩٧ الطبعة المصورة .

ثم قال له الحسن انظر الى جنبك – فنظر العبدان – فقال الحسن – فهما حران لئن لم تغن مائة صوت لآمرهما بطرحك بالبئر – وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن ايديهما فاندفع ابن عائشة يغني حتى غنى مائة صوت – قال حرير فما رؤي يوم أحسن منه .. وما بلغني ان أحداً تشاغل عن استماع غنائه بشيء ولا انصرف لقضاء حاجة حتى فرغ وتبادر الناس من المدينة وحولها ... ثم انصرفوا يزفونه الى المدينة زفاً) (١) .

وكان ابن أبي عتيق يشد الرحال من المدينة الى مكة حيث يسكن الغريض في احدى ضواحيها ليسمع غناءه ويقيم عنده أياماً ويجزله بهداياه (٢) وقد عرف بأنه كان وكيل دفاع للمغنين يسعى لدى الخلفاء ليكفوا عنهم (٣) وذاك النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان يذهب بنفسه الى دار عزة الميلاء لسماع غنائها (٤) . وكان عمر بن عبدالعزيز يعجبه الغناء أيضاً (عندما كان والياً) وقد صنع سبعة ألحان يذكر فيها سعاد (٥) .

ولم يقتصر الاعجاب على الرجال بل شاركهن النساء أيضاً منهن سكينة بنت الحسين التي استضافت في قصرها المغني العراقي حنين الذي دعاه مغنو المدينة واذنت للناس أذناً عاماً وغصت الدار بهم وغنى لهم ماطاب لهم ... (٦) .

ولما غناها الغريض وابن سريج (عوجي علينا ربة الهودج (قالت) مامثلكما عندي الا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان لايدري أي ذلك أحسن) (٧) .

كما أن بعض الفقهاء والقضاة من أهل هذا البلد استحسنوا الغناء فيروى عن عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس انه لقي ابن شريح بذي طوى وأسمعه صوتاً من غنائه فاضطرب اضطراباً شديداً وحلف أن لايكلم يومه أحداً الا بالشعر الذي غناه فيه وعاد إلى مكانه في المسجد الحرام والناس يسألونه عن الحلال والحرام فلا يجيبهم بشيء الا أن يضرب احدى يديه على الأخرى وينشد ذلك الشعر (٨) .

---

(١) الاصفهاني – الاغاني ج٢ص٢٠٦ أخبار ابن عائشة .
(٢) نفسه ج٢ ص ٣٨١
(٣) نفسه ج١٦ ص ٢٠ ، ابن عبدربه – العقد الفريد ج٣ ص ٢٠٨ الطبعة الازهرية .
(٤) الاصفهاني – الاغاني ج٣ ص ١٣
(٥) نفسه ج٩ ص ٢٥٠
(٦) الاصبهاني – الاغاني ج٢ ص ٣٦٨
(٧) نفس المصدر ج٢ص٣٧٩
(٨) نفسه ج ٢ ص ٢٦٥ – ٢٦٦

وللفقيه ابن جريج رواية مشابهة حيث كان جالسا في حلقته وحوله اناس عراقيون يحدثهم اذ مر ابن تيزن المغني فدعاه ابن جريج وطلب منه ان يغنيه الصوت الذي غناه في اليوم الثاني من ايام منى على جمرة العقبة وقطع الطريق حتى انكسرت المحامل ، فغناه واستحسنه ابن جريج ثم سأل محدثيه ان كانوا أنكروا عليه فعله فقالوا أننا ننكره بالعراق ونكرهه فأجابهم بأن لافرق بينه وبين الحداء (١) .

وهناك رواية عجيبة يرويها المسعودي (٢) عن أحد قضاه المدينة الذي اتاه رجلا عراقيا يطالب شراء جاريته فرفض وسأله عن سبب شرائها فذكر العراقي بأنها تجيد الغناء ، فاستدعاها القاضي وطلب منها الغناء وغنت واحسنت ففرح القاضي بجاريته وغشيه الطرب ولم يدر مايصنع فأخذ نعله ووضعه على اذنه وجثا على ركبته وجعل يقول (اهدوني إلى البيت الحرام فأنا بدنة حتى ادمى اذنه) ثم قال للعراقي — قد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم انها تقول فنحن الآن فيها أرغب فانصرف الفتى وبلغ الخبر الخليفة عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله اشدقه الطرب وصرفه عن عمله — فقال — نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبوني اني مطية فبلغ ذلك عمر واستدعاه والجارية ثم طلب القاضي من الجارية ان تغني فغنت .

كأن لم يكن بين الحجـــون إلى الصفا انيس ولم يسمر بمكـة سامـــر
بلى نحـــن كنـــا أهلهـــا فأبـادنا صروف الليـالي والجدود العـواثر

فطرب عمر وأخذ يستعيدها ثلاثا وقد بلت دموعه لحيته واعاد القاضي إلى عمله . وهذه الرواية على غرابتها توضح مدى تأثير الغناء في النفوس مهما كانت المستويات وآخر من استعرضهم من العباد الذين فتنوا في الغناء (عبد الرحمن بن أبي عمار) الملقب بالقس لعبادته ويروى انه سمع غناء سلامة القس على غير عمد منه اعجب ولما رآها زاد اعجابه وشغف بها ثم قال :

قد كنـت اعـذل في السفاهة اهلهـا فأعجب لمـا تأتي بـه الايـام
فاليوم أعذرهـم واعلـم انمـا سبل الضلالـة والهـدى اقسام (٣)

وفي موسم الحج وما لأيامه من قدسية لدى المسلمين الا أن الحياة الوجدانية في اللهو قد

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ ص ٣٣٩ المصورة .
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٤
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٨ ص ٣٣٤ الطبعة المصورة

خرجت بعض الاحيان عن الالتزام الموجب ، فيروى أن ابن عائشة وقف يغني في الموسم وحبس الناس واضطربت المحامل ومدت الابل اعناقها وكادت الفتنة تقع (١) .

وهناك روايات تذكر ان بعض هؤلاء المغنين لايرون حرجا في اداء فريضة الحج ومنها المهرجان الذي وصفه يونس الكاتب عن حج جميلة (٢) .

ويبدو ان السياسة الاموية كانت تعمل بطرق مباشرة او غير مباشرة لتهيئة هذا الجو بالحجاز وكانت طبيعة الخليفة الثاني يزيد مشجعة لذلك الوضع لما طبع عليه من حب الغناء وعطاياه للمغنين وشرائه الجواري المغنيات .

وحين نمي إلى عبد الملك بن مروان أن ابن مسجح أفسد فتيان قريش استدعاه إلى الشام ولكنه عندما سمع غناءه عذره واعطاه الاموال (٣) وروى ابو الفرج(٤) (ان سليمان ابن عبدالملك حين حج سبق بين المغنين ببدرة) ويبدو من الرواية ان الخليفة جاء لاداء فريضة مقدسة وليس لسماع المغنين واجازة الافضل منهم بجوائزه ، ولكنها السياسة الاموية في تشجيع هذا الجو .

وبلغت الحجاز شهرة في هذا الفن انتشرت إلى البلاد الاخرى فقدم فتيان بني أمية من بلادهم إلى الحجاز لسماع غناء معبد وابن شريح (٥) ووصل جواري معبد إلى الأهواز ونشرت اغانيه هناك واستمرت شهرة المدينة إلى عهد الاديب ابن عبدربه الذي يقول دنينا في السماع دين مديني (٦)

وسار مع الغناء ضرب آخر من ضروب اللهو وهو شرب الخمر ، حيث نسمع ان كثيراً من الشباب يشربون المسكر على الرغم من تحريم الاسلام له — والخليفة معاوية اعترض على مروان بن الحكم حين اقام ضرب الحد على ابن أرطأة الشاعر لشربه الخمر بالمدينة وقال انه

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج١٨ ص ١٢٧
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص٢١٠
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٣ ص ٢٨٢ أخبار ابن مسجح .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٧
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٠
(٦) الثعالبي — لطائف ج١ ص ٣٦٣
ابن عبدربه — ج٣ ص ٣٣٣

ليس بحرام(١)ويذكر المسعودي(٢)ان الناس اظهروا في عهد يزيد بن معاوية شرب الخمر.

وقد ساد شرب الخمر في مجالس الغناء ومواسم سيل العقيق والمنتزهات الخ .

ومما يروي في هذا الصدد ان عمر بن ابي ربيعة وفد مع الأحوص وابن ابي عتيق إلى دار جميلة فدعت لضيوفها بشراب وشربوا (٣) كما جاء في اخبار الهذلي ان فتيان قريش كانوا يأتون ومعهم الطعام والشراب والدراهم فيجلس على رأس الجبل ويجلسون تحته في السهل فيشربون وهو يغنيهم حتى المساء (٤) .

وكان والي المدينة ابراهيم بن هشام المخزومي يشرب الخمر مع ابن عائشة وهو نديمه (٥) كما كان ابن سيحان الشاعر يشربها مع الوليد بن ابي سفيان ، والوليد بن عثمان مع الوليد بن عتبة (٦) .

واذا تركنا الولاة نرى ان بعض الاشراف ايضاً قارفوا الشراب منهم عبدالله بن جعفر سيد بني هاشم (٧) .

وتبعاً لذلك فلا بد ان يكون هناك من يعمل بها وتخير ببيعها ،وقد ورد ذكر ابن خونك(٨) (نباذ كان بالمدينة) ولعل هناك عدداً من العاملين في هذه الحرفة غيره ويبدو ان اهل الحجاز كانوا يحلون شرب نوع من النبيذ في هذه الفترة التي انتشر شرب الخمر فيها في اغلب البلاد الاسلامية ويؤكد ذلك رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز للامصار في امر الانبذة (٩) حيث يوضح لنا اختلاف الناس فيما هو محرم ومحلل من انواع النبيذ .

---

(١) — الاصفهاني — الاغاني ج٢ ص ٢٥٠

(٢) المسعودي مروج الذهب ج٣ ص ٦٧

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٨ ص ٢٠٨ الطبعة المصورة .

(٤) المصدر نفسه ج٥ ص ٦٧

(٥) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٣٦ كان والياً لهشام بن عبد الملك .

(٦) البلاذري — أنساب الأشراف ج٥ ص ١١٥ — ١١٦

(٧) الاصفهاني — الاغاني ج٤ ص ٢١ ج ١ ص ٢٢٩

(٨) المصدر نفسه ج٤ ص ٣٧٣ ط المصورة .

(٩) ابن عبدربه — العقد الفريد ج٣ ص ٣٣٧ الطبعة الأزهرية .يقول في رسالته (أما بعد فان الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سفه أحلامهم وأذهب عقولهم ... وان أناساً يصيب ذلك الشراب يقولون شربنا طلاء فلا بأس علينا من شربه. ولعمري أن فيما قرأت مما حرم الله بأساً وان في الاشربة التي أحل الله من العسل والسويق والنبيذ والزبيب والتمر لمندوحة عن الاشربة الحرام غير ان كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا نبيذ إلا في أسقية الادم التي لازفت فيها ولا يشرب منها مايسكر).

ونجد ان الصبغة العامة لهذا المجتمع يغلب عليها عنصر الهزل والمزاح والمرح فنجد للمدينة مضحكاً خاصاً يدعى الغاضري وبعده اشعب وغيرهم ولأشعب شهرته في هذا الصدد حتى ان البعض كان لايستطيع الاستغناء عن نوادره ويقول في ذلك (ان واليا من ولد عامر بن لؤي كان ابخل الناس ... يطلبني في ليله ونهاره فان هربت هجم على منزلي بالشرط وان كنت في موضع بعث إلى من اكون معه يطلبني منه ويطالبني بأن احدثه واضحكه(١) وكان يختلف إلى قصور بعض الشريفات آنذاك كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين لنفس الغرض (٢) .

ولا شك ان هذا النوع من اللهو لايظهر في المجتمع الا بعد ان يتوصل إلى درجة من الترف حتى يتواجد بين اهله من يتخذ أناساً يضحكونهم .

واخذ المجتمع حظه من حرية الاختلاط بين الجنسين ، وبخاصة عند سيل العقيق حيث يخرج اليه الناس افواجاً ويتقدون حوله الانس والطرب ، ويلتقي النساء بالرجال على غير عمد وخاصة الشعراء منهم — حيث ان اغلب النساء كن يعجبن بالشعر ، فقد جاء عن قيس ابن معاذ انه (كان صاحب غزل ومجالسة للنساء فخرج على ناقة يسير فمر بامرأة من بني عقيل .. ومعها نسوة فعرفته ودعونه للنزول والحديث .. فنزل فظل يحدثهن ويناشدهن وهن اعجب شيء به فيما يرى) (٣) .

وهناك عدة روايات تجاريها في المعنى (٤) واخبار الشاعر عمر بن ابي ربيعة كثيرة في مجال الاختلاط بالمرأة (٥) ، وقد كانت السيدة سكينة بنت الحسين تقيم المناظرات الشعرية في دارها وتجيز الفائزين (٦) .

ويبدو ان السفور كان موجوداً في بعض الاوساط فعائشة بنت طلحة تعلل سفورها بقولها (ان الله وسمني بميسم الجمال واحببت ان يراه الناس ويروا فضله عليهم فما كنت

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج١٧ ص ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١

(٢) نفس المصدر السابق ج١٦ ص ٤٨ ، ٤٩ ط المصورة .

(٣) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٨ أخبار مجنون بن عامر .

(٤) المصدر نفسه ج٦ص١٢٢ عن الشاعر نصيب .

(٥) الجاحظ — المحاسن والاضداد ص١٩٢ .

(٦) البيهقي — المحاسن والمساوىء ج١ص١٦٧ — ١٧٠. الأصفهاني — الأغاني ج١٦ص١٦١.١٦٣

لأستره) (١) ومثلها هند صاحبة ابي دهبل الجمحي (٢) وغيرها .

تبعاً لذلك الجو الظريف فقد ظهرت قصص الحب وصورها واضحة في الشعر الذي اصبح عادة رائجة على السنة المغنين ويقول المسعودي (٣) (لم تكن محبة القوم اذ ذاك لريبة ولا فاحشة) . وهناك روايات عديدة في هذا المضمار (٤) .

وكان موسم الحج مجالا آخر للتعرض للمرأة ، حيث ان بعض الشباب لم يكن يقصد من حضور الموسم الا التعرض للنساء ، فهذا إبن قيس الرقيات يتعرض لرقية بنت عبد الواحد وهي تستلم الحجر الاسود وتقبله فيقول فيها الشعر (٥) وحين ارادت أم البنين زوجة الخليفة الوليد الحج ، كتب الوليد يتوعد الشعراء اذ تعرضها او ذكرها احدهم فقدمت (وتصدى لها اهل الغزل والشعر ووقعت عينها على وضاح اليمن فهويته) وقيل انها طلبت ان ينسب بها . . وغضب عليه الوليد (٦) وما اكثر اخبار عمر بن ابي ربيعة في مطاردة النساء ومغازلتهن اثناء الموسم حيث يقول عنه ابو الفرج (٧) (كان عمر يتقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات إلى مرو والشاميات إلى الكديد) .

وروى الازرقي (٨) ان الرجال والنساء كانوا يطوفون معاً مختلطين حتى ولي مكة خالد بن عبدالله القسرى لعبد الملك بن مروان فذكر انه سمع قول الشاعر

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد

وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف واجلس الحرس معهم السياط . وكان الترف غالباً على كل شيء حتى في موسم الحج فيروى ان عائشة بنت طلحة كانت تحج في صورة

---

(١) الأصفهاني – الاغاني ج١١ص١٧٦ .
(٢) المصدر نفسه ج٧ص١٣٥ .
(٣) المسعودي مروج الذهب ج٣ص١٨٨ .
(٤) الجاحظ – المحاسن والأضداد ص١٩٩ .
(٥) الاصفهاني – الاغاني ج٥ص٩٦ اخبار ابن قيس الرقيات .
(٦) نفس المصدر ج٦ص٢١٩ .
(٧) الأغاني ج١ص٢٢٩ .
(٨) اخبار مكة ج٢ص٢٠ط دار الثقافة مكة ١٩٦٥ .

باذخة فعندما ارادت عاتكة بنت يزيد الحج استأذنت عبد الملك فقال لها (ارفعي حوائجك واستظهري فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت وجاءت في هيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت — أرى هذه عائشة ، فسألت عنها فقالوا — خازنتها ، ثم جاء موكب آخر اعظم منه فقالوا عائشة فضغطتهم فسألت عنه — فقالوا — ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سننها ثم اقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة عليها الثياب والهوادج — فقالت عاتكة — ما عند الله خير وابقى(١) فهذه حفيدة معاوية لم تستطع ان تبلغ مابلغته عائشة في هيئتها وترفها وزهوها وذكر عنها الاصفهاني انها عندما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج الى مال عظيم لها بالطائف وقصر متنزه تجلس فيه العشيات فتناضل بين الرماة ثم يفد اليها الشعراء فتجيزهم (٢) .

ومن ضروب اللهو الاخرى اللعب بالشطرنج والنرد ، وكان بعض الفقهاء يحل ذلك بقوله (لابأس به هورفق) (٣) وكان بعض الصحابة والتابعين لايرون حرجاً به ، فابن عباس عندما ختن ابنه ارسل إلى اللاعبين فلعبوا واعطاهم اربعمائة درهم (٤).

ويبدوا ان هناك نادياً تتوفر فيه وسائل التسلية قال ابو الفرج (٥) (ان عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات و دفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار اوتاداً فمن جاء علق ثيابه ثم جر كتاباً فيقرأ او بعض ما يلعب به مع بعضهم) .

وفضلا عما تقدم فان اهل المدينة كانوا مولعين بالصيد وخاصة في بقيع العقيق (٦) ويروى ان الحجاج كان يشارك اهلها في صيدهم (٥) واشتهر الشاعر العرجي في الصيد في مدينة الطائف — حيث لايحرم الصيد — وكان لديه بستان ويبري السهام من قضبانه .

مما تقدم رأينا ان ثروات كبيرة تجمعت لنفر من الناس منذ بداية الفتوح إلى ما بعد قيام الدولة الأموية — وان المؤرخين قد قدروا بعض تلك الثروات بالملايين ومئات الآلاف ومن الجائز ان الناقلين لم يتحروا الدقة في حساب الارقام ولكننا إذا بحثنا عن مصادر هذه الأموال — والتي

(١) الأصفهاني — الاغاني ج١١ص ١٨٨ط المصورة .
(٢) المصدر نفسه ج١٠ص٦١ ، ج١١ص١٨٠— ١٩٠ .
(٣) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج٣مجلد ، ص٣٢٣ .
(٤) المصدر نفسه ج٣مجلد ١ص٢٢ .
(٥) الاغاني ج٤ص٢٥٣ .
(٦) البكري — زهر الاداب ص١٧ .
(٧) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج٢ص١٢٢

ذكرناها سابقاً — نرى أغلبها اجتمعت من اموال الفتوح — والعطاء والتي ثمرت في اربح التجارات وهي التجارة بين الشرق والغرب عن طريق العراق والشام اضافة إلى استثمارها في مجال الزراعة — حينئذ يبدو لنا ان الثروات كانت كبيرة فعلا . ولكن هذه الثروات لم تكن ظاهرة في المجتمع في السنوات الاولى ، لان روح الزهد كانت غالباً ما تدفع اصحابها إلى الاسراع في توزيعها على مستحقيها من الفقراء والمعوزين ، كما لم تؤد إلى الترف الذي يعتبره الاسلام رذيلة مزدراة .

ولكن التغيير ظهر واضحاً في العصر الاموي وبخاصة بعد الاختلاط مع اهل البلاد المفتوحة وتأثر العرب بما رأوه فيها من ضروب الحياة المتنوعة التي لم يألفوها في بلادهم ، ومع اتجاه السياسة الاموية لتشجيع هذه الامور تماشياً مع مصلحتها في اشغال ابناء اهل الحجاز في مجالات اللهو وابعادهم عن المشاركة السياسية والادارية .

ولكن هذه السياسة كان لها أبعاد ايجابية ايضاً حيث قدمت للحضارة العربية في مجال الادب معيناً لاينضب من الشعر والنثر كفنين جديدين في هذا العصر .

مصادر البحث

الابهيشي — محمد بن احمد ابي الفتح ٧٩٠ — ٨٥٠ هـ
المستطرف في كل فن مستظرف جزءان
مطبعة المشهد الحسيني — القاهرة — مراجعة عبدالعزيز سيد الأهل

ابن الاثير — علي بن محمد ت ٦٣٠هـ
الكامل في التاريخ — دار بيروت للطباعة والنشر
اسد الغابة في معرفة الصحابة
المطبعة الاسلامية . طهران — خمسة اجزاء

ابن آدم — يحيى ت ١٨٨
الخراج ط ليدن ١٨٩٥م

الازرقي — محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٢٣
اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
روائع التراث العربي (٢) مكتبة خياط بيروت
وط دار الثقافة — ١٩٦٥

الاصبهاني — أحمد بن عبدالله ت ٤٣٠ هـ
— حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
ط — دار العربي — بيروت

الاصفهاني — أبو الفرج
الاغاني — الجزئين (١و٢) اعداد لجنة نشر كتاب الاغاني مصر ١٩٧٠ وطبعة — دار الكتب والطبعة المصورة عن دار الكتب

أمين الخولي — مالك بن أنس
طبع دار الكتب — مصر

البخاري — محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٢٥٦ هـ
الصحيح
مطبوعات محمدعلي صبيح وأولاده — مصر

البلاذري — أبي الحسن
— فتوح البلدان — مطبعة السعادة مصر ١٩٥٩
— أنساب الاشراف الجزء الأول — ط دار المعارف مصر تحقيق محمد حميدالله والجزء الخامس — مطبعة القدس ١٩٣٦ .

البيهقي — ابراهيم بن محمد — أحد أعلام القرن الخامس
المحاسن والمساوىء
ط دار صادر بيروت ١٩٦٠

الثعالبي — عبدالملك بن محمد ٣٥٠ — ٤٢٩ هـ
لطائف المعارف تحقيق ابراهيم الابياري وحسن الصيرفي
طبع دار أحياء الكتب العربية مصر .

ابن حجر — أحمد بن علي ت ٨٥٢
تهذيب التهذيب ط دار المعارف النظامية الهند ١٣٢

ابن أبي الحديد — عرابي حامد عبدالحميد — شرح نهج البلاغة ط دار الكتب مصر ١٩٥٩

الجاحظ — عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ
المحاسن والاضداد — تحقيق فوزي عطوى — الشركة اللبنانية للكتاب

بيروت ١٩٦٩

جبـور — جبرائيل سليمان
حياة عمرو بن أبي ربيعة — المطبعة الامريكية بيروت ١٩٣٩ م

الديار بكري — حسين بن محمد ت ٩٦٦ هـ
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس
ط مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع — بيروت

ابن رسته — أحمد بن عمر
الاعلاق النفيسة ط ليدن ١٨٩١ م

السكري — محمد بن حبيب ٢٤٥ هـ
تصحيح الدكتورة ايلز ليختن — منشورات المكتب التجاري بيروت

السمهودي — عبدالله بن شهاب الدين ت٩١١ هـ
ط الآداب والمؤيد — مصر ١٣٢٦ هـ

ابن سعد — محمد ت٢٣٠ — الطبقات الكبرى — ط ليدن

سيد أمير علي — مختصر تاريخ العرب — دار العلم للملايين — بيروت

الطبري — محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ
المطبعة الحسينية الاولى مصر

طه حسين — حديث الاربعاء طبع دار المعارف مصر ١٩٦٥

ابن عبد ربه — أحمد بن محمد ت٣٢٨ هـ
العقد الفريد
المطبعة الازهرية المصرية

عبدالله عفيفي — المرأة العربية في جاهليتها واسلامها
ط القاهرة ١٣٣٩ — ١٩٢١ م

العقاد — عباس محمود

عثمان بن عفان
مطبعة المدني القاهرة

الفاسي — محمد بن أحمد علي ت ٨٣٢ هـ
شفاه الغرام باخبار البلد الحرام

ابن قتيبة — أبو محمد عبدالله ت٢٧٦ هـ
عيون الاخبار — نسخة مصورة عن ط دار الكتب — المعارف ط دار الكتب ١٩٦٠ تحقيق ثروت عكاشة

المسعودي علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ
مروج الذهب ومعادن الجوهر — ط بيروت ١٩٦٥

ابن المنظور جمالى الدين محمد بن مكرم ٦٣٠ هـ — ٧١١ هـ
لسان العرب — ط بيروت ١٩٥٥ م ١٣٧٥ هـ

ياقوت أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله ت٦٢٦ هـ
معجم البلدان بيروت ١٩٥٥ وط دار بيروت ١٩٥٧ م

اليعقوبي التاريخ — المطبعة الحيدرية ١٩٦٤